ميرال الطحاوي

الباذنجانة الزرقاء

رواية



سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٦١)

الباذنجانة الزرقاء

الباذنجالة الزرقاء

ميرال الطحاوي

الطبعة الأولى ١٩٩٨



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ س.ت ٢٦٩١٩٨

غلاف وإخراج : ذات حسين

لوحة الغلاف: حسن حماد

رقم الإيداع ١٠٨٢٨ / ٩٦

ISBN 977 - 283 - 025- 6 الترقيم الدولي

الباذنجانة الزرقاء

ميرال الطحاوي

رواية



دار شرقيات للنشر والتوزيع

إلى الولد الصغير الذي رافقني كل أوجاعي

أخي .. محمود

(١)

أرجوحة سن الفأر

كانت تريدني أن أصبح أميرة، فألبستني أحذية أصغر من مقاسي، وربطت مهرة صغيرة سمتها باسمي في كافورة بيتنا وحدثتني في الليل عن أحزانها، كان لابد أن أصير أطول قليلاً لأن كل الأميرات ممشوقات القوام. أبي كان يريدني عالمة فضاء فربما اكتشفت أشياء مبهرة وأن يطلق اسمه على مجرة من المجرات، كان يفترض أنني عبقرية اضطررت أن أعتقد ذلك معه.

أخي لم يجاهر بما يريد لكنني دون أن يتكلم حرصت أن أثبت له أنني قديسة أصلي كثيراً وأطلب المغفرة على ذنوب كنت احلم فقط بأقترافها.

اكتشفوا مبكراً انني مخيبة للآمال وتأخرت حتى أدركت أنني بنت مثل كل البنات، أحلم أن بالكافورة فرساً، يركض بها رجلٌ يدعى محبتي، يخطفني من الشرفة المطلة على القمر لنكتشف عوالم. ليس مهماً أن يطلق عليها اسم أبي، سنحفر حروف أسمائنا فقط، ونصدق أن الله رحيم ولن يعتبر المحبة إثماً كبيراً.

تأخرت في اكتشاف ذلك فاكتفيت بشراء سمكة أسميتها "ايرما" ترقص ايرما أمامي في بلورتها وأنا أستغرق باهتمام في مراقبة خيباتي، وأدعى أن عبقريتي لم تكتشف بعد.

"عزّى المعزي وكيرت القله.

مافيش ولد يآخذ العزا برّه"

استقبلتها الجدة بهذه العدودة، كانت مثل الباذنجانة الزرقاء ، لم تستطع أن تسكن في بطن الملكة "ناريمان" أكثر من سبعة أشهر. بطن الملكة كان يعتبر النتوء الذي طفر، بعد بضعة أشهر مَن الزفاف، شيئاً مخجلاً، لأن صديقاتها حين كن يلتففن حولها في البلكونة ويهززن سيقانهن العارية ، يقلن لها: "لم هذا الاستعجال ياملَك، خسارة صحتك". وتمضغ تانت حبيبة الممتلئة بقايا " الكريم كرميل" من طبقها وتضحك باسترخاء قبل العبارة وبعدها:

-"فؤادي ولا ولادي".

تانت "نوال" تدخن ، وترقص ، وتقلد "رجاء الجداوي" في مشيتها ، وتقتني كل أعداد مجلة "حواء" . ستضع سيجارتها في المطفأة ، وتشير بإصبعها إلى وجهها :

-"الزبادى مهم جداً في هذه الفترة لوجهك كي لا يظهر الكلَف والنمّش . المنطقة التي حول عينيك ياملَكَ لاتلمسيها، دلكيها بالكريم المرطب من أسفل لأعلى ، عكس خطوط العين."

تانت فوقية مدرسة الفصل لن تتكلم، ستغزل لها من الكروشيه أثواباً للبيبي، وتبدو أكثر شجناً لأنها بلا أطفال.

سعد باشا سيفرح لأنه وحيد ويريد عائلة أكبر من قبيلة. أولاد يسندونه ، وبنات، واحدة أم، والأخرى أخت، والثالثة أبنة، والبقية سيجد لهم أماكن كثيرة فارغة في قلبه ليضعهم فيها . فرحته يرسلها في

خطابات تضعها الملكة تحت وسادتها .

سعد باشا يعمل جراحاً ، إنه على الجبهة في "مستشفي التـل الكبـير العسكري" . الفوانيس التي يطفئونها في الغارات تذكرهم بأنه رجل شجاع لايخاف الحروق ولا الأعضاء المبتـورة لمجندين فـي سترات عسـكرية. طلمبات الكيروسين التي تشتغل تحت ضوئها تابلوهات الكانفاه. ستذكرها بأنها في قرية صغيرة وليست في القاهرة ولا الإسكندرية ، صحيـح أنـها أرض أبيها وجده ، لكن كل صديقاتها وبنات أعمامها سيطلقون عليها فقط "العزبة" ، العزبة التي يزورنها في الأعياد والإجازات . وعندما يدعـون صديقاتهن ليشاهدن الفلاحين . تحزن أكثر وتشعر أنها في المكان الخطـأ، تنظر للنتوء الذي في بطنها ، سيكون وجوده مبرراً لمناقشة أمـر مستقبله وتعليمه في البيئة المناسبة .

في مدار السرطان، برج القرد، في العام السابع والستين بعد الألـف والتسـعمائة ، ستهبط من بطـن الملكــة ناريمــان فــي منتصــف الليــل ، والفوانيس فـي السـماء تؤكـد غـارة جديـدة وصـوت القنـابل ليـس بعيـداً، والظلام يقرر أنه من المحتوم أن تلِد الملكة علـى يـد الجدة ، دون غرفـة عمليات ولا بنج ولاأدوات تعقيم . بسكينة المطبخ سيتم بتْر حبل الخـلاص ، سكينة المطبخ لم تكـن حـادة كمـا ينبغـي ، ستسـنها "سِتّي" علـى حَجـر خفّاف كانت تدعك به كعبها ، وستضـع فـي فـم الملكـة خرقـة يتضـح بعـد مرور الغارة أنها كانت قذرة ، لكن ينبغي أن تعض المـرأة أثنـاء ولادتهـا شيئاً، واللمبة السهاري كانت لا تبُين الفـرق بيـن "السـما والعمـى". وحيـن تجفف الملكة عرق الخلاص من النتـوء ، لـن تجد فـي زجاجـة الكولونيـا المنسكبة بقية لتطهير الجرح.

بعد سبعة أيام لن يحفل أحد بمولِد "الباذنجانة الزرقاء" التـي رزقـت

بها، لأن الأب لم يعد ، ولأن الغارات العارضة لم تكن غارات ، بل كانت هزيمة "١٩٦٧"، ولأن الملكة كانت تصطك أسنانها خوفاً من"التيتنوس " الذي ربما يأتيها بعد هذه الولادة الهمجية التي لم تتصور أن تخضع لطقوسها أبداً .

بعد سبعة أيام أخرى سيعود الأب وفي يده خدل يشبه الشلل النصفي ، وسيقول أصدقاؤه بأروابهم البيضاء "أعصابه لم تتحمل" ، لن يتذكر أن نتوءاً كان في بطن زوجته قد تحول إلى باذنجانة زرقاء إلابعد أيام طويلة قادمة، سيكتشف من خلال نظرته الأولى أن الطفلة جاءت قبل الأوان، وأن حبل الخلاص الذي عقدوه سرة لها لم يتم ربطه كما يجب، فالسرة تتفتق لتبرز أحشاءً صغيرة لم يكتمل نموها، سينشغل بغيار الجرح وربط السرة ونمو الباذنجانة، وقدرتها على الابتسام وهي في الشهر الأول ، وستعتبر الأم خروجه من صمته على يد قطعة اللحم التي نسوا أن يختاروا لها اسماً معجزة كبيرة تستحق ذبح خروف، وعزومة لتانت نوال وفوقيه وحبيبة وكل من له في الولائم. عقدوا اجتماعاً كبيراً ووضعوا في وسط التورتة سبع شمعات، وكل شمعة لها اسم: نادية، ناني، نرمين، ندى، نشوى، نهلة. نجلاء الملكة ناريمان تحب حرف النون لأنه ينطق من الأنف وبتأن شديد ، ويأخذ مساحة أوسع نسبياً من الميم والياء . ولأن اسمها لم يكن "ناريمان"، لكنها من يوم أن وضعت صورتها في الإطار وقالت لها كل صويحباتها إنها تشبه ناريمان في صورة زفافها وهي متمسكة بهذا اللقب ، حتى أنها نسيت اسمها الحقيقى فقد كانت تريد لابنتها اسماً راقياً يصلح لأميرة . قال سعد باشا "ندى" وبقت شمعته موقدة حتى النهاية، فاختاروا الاسم، ودعوا بعمر لا ينطفىء للطفلة ذات الرباط على سرتها، التي اعتقدوا جميعاً أنها لن تعيش طويلاً ، لكن حتى الأموات يجب أن يكون لهم أسماء تناديهم الملائكة بها ، فليكن "ندى" ، بعد أن يصبح لها مذكرات وقصص وأشعار في أوراق

خاصة، ستكتفي "بنون" تضعها في نهاية الصفحة .

في السنة الأولى صارت تتكلم ، صغيرة ونحيفة ورأسها أكبر من جسدها، وساقاها لاتحملانها ، كانت أشبه بأراجوز صغير ، كل سكناته ولفتاته وثأثأته مضحكة، يحملها "سعد باشا " ويطوحها في الهواء ويقول "قد الزبلة ومقاوّمة الطيارة" إشارة إلى، ساعديه اللذان يطوحانها ، و"الزبلة" جسدها الضئيل الذي يتطوح في الهواء وتصدر عنه هذه الكركرات العالية التي تشبه ضحكات الأطفال المرسومين على علب اللبن وبودرة التلك . ضحكتها فقط كانت تشبه ضحكاتهم ، لكن شكلها كان يؤكد نبوءات الجدة "سِتّى" بأنها "تمن الإبرة" أي لن تباع في سوق الصبايا إلا بثمن الإبرة. سعد باشا "سيقول" فشروا ، بنتى مثل القمر"، ولم يكن القرد في عين أمه غزالاً ، كانت أمها مشغولة بنتوء جديد، بدأ يظهر في بطنها تفاءلت به كثيراً ، ورحل الأب بعدها إلى الجبهة مرة أخرى، حاملاً معه في تسجيل الصوت، كركرة القردة التي كانت باذنجانة وهي تغني له:

"كتبوا كتابك يانقاوة عينى، والطشت فضة والمعالق صيني"

قد يضحك سعد باشا على أقوالها التي تؤكد أنها أراجوز صغير ، لكن الملكة ستعتبرها "نكبة" بأغنياتها وأقوالها التي تأتى بها غالباً من جدتها "سِتّى" ثم من الأشكال والألوان لخادمات صغيرات تبدلهن الملكة بعد أن يتضح لها أنها تعلمت من السابقة لفظه أوحركة غير لائقة .

ستظل أمها تبدل في الخادمات ولن تكف الابنة عن التقاط أشياء يضحك عليها طويلاً ، وسيسجل لصوتها أغنيات أخرى

"أحب ولا اتوب ياناس شوروا عليا"،

"قُصّة حبيبي زبدة مدهونة"

وستبلغ المهزلة ذروتها حين تشاركه زجاجة 'البيرة' بكوب يشبه فنجان القهوة وتسقط مسطولة بعد ثاني جرعة ، بعد أن تكون عيناه ممتلئتين تماماً بالدموع من كثرة الضحك ، ولن تجد الملكة مفراً من الابتسام وهي تحملها إلى فراشها ، مؤكدة كل مرة أنها "خلفة شياطين' وستعرف رقبتها ساق الفراش ، وتنبح طويلاً في غيابه ، لأنها قالت للملكة وهي تشير بإصبعها الصغيرة في لحم ساقها ، وبدون أية مقدمات "خذى دبوس" ووسط اندهاش الأم التي ترجمت "الدبوس" ترجمة صحيحة ، بإبدال الدال عيناً وبالتقديم والتأخير، واستشفاف مظاهر وخز الإصبع ، وبعد ابتلاع الصدمة المصاحبة لبراءة الأراجوزة ، الذي يقلد فقط ، فقد تم عقد اجتماع مطول لتانت حبيبة ونوال وفوقية وأخريات لمناقشة هذه المصيبة، وتم وضع الفلفل الحار في فمها وربطها في ساق الفراش ، وإظلام الغرفة ، ثم صودرت عروستها من حضنها وتم الاصطلاح على مناداتها "تربية الشوارع" في مسار المسميات التي ستطلق عليها ابتداء من الباذنجانة الزرقاء ، ثم القردة ، فالأراجوزة ، فتربية الشوارع، هذا اللقب الأخير سيلتصق بها لمدة طويلة.

❋

"-افتحوا لي الباب ده ،

-الجاموسة والدا ،

-طَبْ افتحوا لي الباب ده ،

-الجاموسة والده "

للباذنجانة ثلاث جدات ، واحدة بحلَق "مخرطة" ومنديل "خرز النجف" وجلابية "رمل سينا" ولها حذاء تلفه في كيس بلاستيك "جزمة باتا" تقول عليها جلد طبيعي ولاتلبسه ، لها أيضاً "طرحة تُللي" من الحجاز ، وتلفها في كيس آخر، وحين تجلس على "المسطبة" الطينية التي تطوق غرفتها ، فلن تلتفت الباذنجانة إلى العصا فير المدقوقة على صدغها، فالبقعِ الداكنة كحروق هي التي تؤرقها. ستظل تسألها كلما نسيت "ما هذا يا ستّي" ، لن تغضب فهي لا تعرف كيف تغضب أو تحزن ، تضحك فقط ضحكة لها صوت الخلاء وتتأوه ، بعد أن تملأ حدقتيها بدموع الضحك ثم تقول:

"خطّي الزمن فوق جبين الحلو ميت خطوة، قلت الوليد شاب وشيب الراس والهموم حَطْهَا"

جَدتها هذه تعرف كيف ترقص ، رأتها وهي ترقص أكثر من مرة أمام دولابها في المرآة ، وتنام في قميص "ستان لاميه "هكذا تسميه ، وعلى صدره "خرز النجف" وفي جيب كل جلابية مرآة صغيرة وملقط ، ورغم أن حواجبها لم تعد تحتاج لملاقط ، فهي أرض بائرة منثور فيها شعرة هنا ، وأخرى هناك ، لكن الملقط كان لشعر ذقنها وشواربها التي لم تخل من بصيلات مماثلة . جدتها "ستّي" تسكن هناك في آخر سور الحديقة بعد الحائط المتهدم حيث تختلط الأرض المزروعة بالأرز والذرة مع أشجار المانجو والبرتقال، على الحائط المتهدم ستجلس الجدة مادة ساقيها في القناة الضيقة المليئة بالماء ، ومن حولها الكتاكيت والأرانب وديوك الرومي التي تجرى وراء الباذنجانة وتكركر ، من هذه القناة التي حفرت فيها بأظافرها لتخرج منها العلَق وتضعه في السنارة عندما كانت تتعلم الصيد ، ومنها أيضاً ستُخرج الجدة قنفذاً شوكياً وتضعه لها في علبة ورقية وتخبئه تحت سريرها لتلعب به كلما هربت وجاءت إليها . سرير

هذه الجدة نحاس ، وعليه ملاءة دائماً بيضاء ، معطرة ، وفوقه كلّة بمبي ، إذا وضِعَت فيها ستتعس . ورغم أن غرفة جدتها ليست مسقوفة بالخشبِ ، وأرضها مفروشةبالرمل الأصفر الذي تنديه بماء حمومها كل صباح ، وفي الشقوق قليل من النمل أو البراغيث ، فقد كانت تحب أن تجلس بجوارها على الحصيرة، وتفرك معها العجين للكتاكيت ، أو تطارد الأرانب الصغيرة في الدوار المقابل . لاأحد يستطيع الإمساك بالأرانب إلا الباذنجانة إذا خلعت حذاءها ، ووضعت طرف ثوبها في فمها وركضت كجروة شرسة ، وارتمت عليهم ، بعد أن تتعب من الركض وتسلق الأشجار ستنام في حجر جدتها "ستّى" لتحكي لها حدوتة "فرط الرمان في صحون دهب" ثم تشبك لها أصابعها الخشنة ليلعبا "افتحو لى الباب ده" تضحك وتكرر الباذنجانة : "الجاموسة والده" ثم تحمل غنيمتها وتعود والملكة تتفقدها وهي قادمة وفي أحضانها "كرتونة" بها ثقوب.

أرنبة بيضاء ، ليس لها صوت ، تتكمش في علبة ورقية ، اسمتها جدتها "قُلّة".، لها فم صغير يقرض بقايا حشائش ، لماذا تركلها أمها من الشباك وتصرخ "ماذا أفعل فيك ياتربية الشوارع والحظائر؟!"، لن ترد ستحاول ألاّتبالى ، ستصبح مثل "ستّى" باسمة بلا مناسبة ، وبنظرة فقط تصوبها من جانب عينيها لها شكل الكراهية أو الغيظ أو العتاب ستواجه الموقف ، وإذا بكت في الليل فلن يراها أحد ، ستحفر نفقاً مظلماً في أحلامها كالأرنب ، وتضع فيه دموعها وتساؤلاً حارقاً عن كون هذه المرأة التي يسمونها "الملكة ناريمان" هي أمها بالحقيقة؟! أمها التي انزلقت من بطنها في ليلة مظلمة وفي السماء فوانيس غارة ، وفي الغرفة صراخ مكتوم بخرقة متسخة ، لم يقصد أحد أن يضعها في فمها ، لكنها وضعت مصادفة لكى تظل الملكة ترى أن وجود الباذنجانة في حياتها نكبة لكل طموحاتها. لن تفهم الباذنجانة ذلك إلاّ حين تطوي الكثير من الأوراق وتخط وهي تقلب بين مراجعها خطوطاً كثيرة تحت"التمرد ومشاعر الذنب

والعدوان بين الأم والابنة" ولن تشعر بأن لأمها صدراً دافئا إلا وهي محبطة تماماً ووحيدة بعد أن فتح الولد الذي تحب باب سيارته وقال لها "لا أريد أن أرى وجهك" كان صدر أمها مفتوحاً كما لم تره من قبل حينها فقط استطاعت أن تغفر لها بعض الأشياء.

*

جدتها الثانية اسمها "الشريفة " وتناديها "الجدة الشريفة " أمها تقول عنها "شيخة عرب"، وسعد باشا يوقرها ويقبل يدها ، يدها سوداء "ومعروقة " ، ومليئة بالأساور والخواتم ، وعلى كتفها عباءة ، وفوق رأسها عقال ، وانفها نحيف كمنقارّ "صقرة "،تشبه "عود الذرة الناشف". هكذا كانت الجدة الأولى تقول ، وأحياناً تلقبها "بكوز العسل أبو ايدين فضة " وتضحك ثم تكمل: "فاضي ومتعنطز على أيه ياكوز، لمّا العسل انكب وانفضّى؟!"

جدتها "ستّى" تكره الجدة الشريفة ، ولاتخفي كراهيتها فهي لازالت تعتبرها ضّرة رغم أن صاحب الفرح مات كما يقولون، تفتح "ستى" صدرها ليرقصِ العقد الأخضر بخرزه" بين ثدييها وهي تكمل ضحكتها:

"قالوا الولاد في السوق بهجورة غلّوا ثمنهم عليها وعاودت مقهورة".

أى أولاد في كل الأسواق كثيرون مثل الهمّ على القلب ، ماغلا ثمنهم إلا على العاقر التي تعود من سوق الخلف مقهورة ، تعايرها بذلك

أنها لم تلد صبايا ولا رجالاً ، ورغم أن "ستّى" تعيش في البيت "التحتاني " كما تسميه " الملكة "، فهي تعيش في بيت ابنها "جارية ولاست" لايهم، أما الجدة الشريفة فهي تسكن هناك مع عبيدها، أليست شيخة عرب ، بعقال ، تركب فرس ، ومن تحتها العبيد يلكزون الركوبة ، ويجرجرون أقدامهم في موكبها ؟!، موكب الجدة الشريفة يأتى في المناسبات الكبيرة فقط ، لذلك لم تجئ يوم مولد الباذنجانة ، أتت يوم مولد النتوء الذي سيليها، لأنه كان "ولداً" يحمل اسم أبيه وجده، يومها رقصت جدتها الأولى "ستّى" وتحزمت ، على المسطبة ، والنسوة من حولها يصفقن ، وعلى طست حمومها يدقدقن: "مملوك صغير لمّا حضر، ياحيطة بيكي عرضي انستر".

وجلست "الجدة الشريفة " فوق ، ومن البلكونة، كانت ترقب هذه الضجة ، صفوا لها الوسائد ، وأمامها تربع سعد باشا وبجانبه الملكة يصبان لها القهوة ويتبادلان تحيتها ويؤكدان أن حضورها شرف، وبركة والبيت نوّر من فوق ومن تحت.

تهز رأسها فقط ولاتتكلم ، وتمد يدها ليقبلها الرائح والغادي ، وحين تقف ، يقف عبيدها لوقفتها ، ولن تقبل أن يوصلها "سعد باشا " لبيتها ، ستقول له "الوابور لأصحاب الطرابيش" وتضع في لفة الصبى ربع جنيه ورق ، وهي تعتقد أنه مبلغ كبير ، وسوف يقبّل سعد باشا يدها بامتنان ، ولن تُجرؤ الملكة بعد خروجها على التندر بالمبلغ الذي تنقط به حفيدها فهي شيخة عرب ولاتفهم في النقود.

لن تترك "الجدة الشريفة " بعد موتها إرثاً لسعد باشا سوى صندوق خشبى كبير ، كان أبوه يجلب فيه قطع الصابون النابلسى والقماش في قوافل تجارته ، ومهرة صغيرة سوف تصبح مادة للتندر عليها وعلى الباذنجانة بعد أن تحكى له أنها خبطت رأسها في الكافورة وقالت الملكة

إن "رأسها ناشف مثل صاحبتها " سيفتح الولد الذي تحب فمه متهكماً "عندك مهرة أم بغلة " ، "مهرة بذيل أم قطة " ، لن تجيب، فقط لأول مرة ستراه ، رغم أن السينما معتمة ، ستراه كما هو، ولن تكرهه ، ستلاحظ ساعتها أن له أسنان فأر.

سعد باشا لن يغضب حين يفتح الصندوق المحمول على ظهر مهرة صغيرة يركض وراءها عبيدها، بعد أن تقاسموا بوصيتها كل ماتركت ، سيبتسم ، والملكة لايليق بها الولولة ، ستخبط كفاً بكف وتقول "الله لا يرحمها مطرح ماراحت".

الجدة "ستّى" هي التي لن تكف ساعتها عن الضحك الخشن الذي يخرج من حنجرتها وتحرك السَّبَّابتَيْن روحة وجيئة وهي تهز رأسها بنفس الإيقاع

"قليل الولد هلبت من موته ح يخرجوه ويقفلوا بيته

قليل الولد هلبت من فقده ح يخرجوه ويقفلوا ملكه"

ورغم أنه كان يعتقد أن بالصندوق حذاء "عجبة" أو درع "حمد الباسل" أو خنجر جده "يونس" الكبير أو حتى جوال "الشافعى" أبو الكرامات" لكن ما بالصندوق كان صفعة حقيقية على وجه الملكة ناريمان، تلك الصفعة استدعت عديداً شامتاً من "ستّى" فمزجت ضحكتها جديدة بحركة إصبعها:

"أنا اللى فايتالكم كردايني أنا اللى تاركالكم دموع عيني"

ويعلو صوت ضحكتها الساخرة في الفِناء حتى تخاف الأرانب وتلبد في جحورها .

*

الجدة الثالثة اسمها "تينا " قصيرة وبيضاء وترتدي ثوباً أسود، قصيراً لايقبّل " سعد باشا " يدها ، فقط ينحني وهو يسلم ويقول لها "ياهانم" ، لها خادمة سوداء في مثل سنها اسمها "دهبة" تناولها علبة مُطعّمة بالصدف تسميها "علبة الدواء" بها مشط ومرآة وزجاجة عطر وقلم حواجب وقلم شفاه أيضاً، تراقبها الباذنجانة وهي تعد رسم وجهها كل نصف ساعة وتعيد تصفيف شعرها القصير الذي سيظل كذلك مدة طويلة قبل أن ترتدي"بونيه" في منتصف رأسها بعد مدة أخرى إلى كاب تركي مائل على حواف "جبهتها" ثم أخيراً بعد أن تحج تتلفع بغطاءكبير من الحرير الأبيض، ولا تنسى أن تزين أطرافه بورد من "الجبير".

أقدام "تينا" صغيرة وممتلئة وبيضاء ، حين تنعس في فراشها ستسكب لها "الخادمة" على الوسادة بعض الكولونيا وتدلك قدميها الصغيرتين بماء الورد ، ستبدو أصغر من عمرها وهي في القميص الوردي وستظل هادئة دوماً ومبتسمة .

تجيد "تينا" عمل قطع الصابون بزيت الزيتون الأخضر والكحل الهب ، وتعد لكل ابنةلها مكحلة بِمِرْوَد فضة ، وعلبة خشبية بها مسحوق الشبة والمستكة والقرنفل، تفرك به تينا إبطيها بعد حمام الصباح، غرفة نومها من خشب الأرو ، ولها بابان ، باب صغير يفُضي لحمام ضيق به طست نحاس أحمر أسفل الدش ، ومقعد خشبى بلا ظهر وسط الطست. به أيضاً رف من الخشب فوقه مرآة و علب متراصةبها مواد مسحوقة ولزجة ، لها روائح نفاذة كثيراً ما عبثت فيها "الباذنجانة" ، وفي سلة من سلال الغسيل ستتكوم المناشف من كل الأحجام والألوان ، سوف تضع "تينا" لها واحدة حول رقبتها وأخرى على ساقها وأخرى تهش بها الذباب ، سوف تكره الباذنجانة كل المناشف وتجفف عينيها وساقيها وجسدها ويديها بعد الأكل وقبله في منشفة واحدة مرسوم عليها قطة، ستسمى

القطة "ياسمينا" وفي الليل ستكوّر المنشفة وتحتضنها وهي تهمس "نامي يا حلوة نامي" وتحس بلسان رطب يلحس دموعها بالليل ويموء.

حين تموت "نينا" فلن ترث الملكة صندوقاً خشبيا مماثلاً فقط ، سيضاف إليه ما اقتسمته مع أخواتها قطعاً أثرية أخرى ، أباريق نحاسية مطلية بماء الذهب، كانت تضعها "نينا " في البنوار ذي المرايا ، قدور نحاس ومَبْخَرة و"مكفى" مخرم كانت توضع أسفله الشموع ، طاقم شاي من الفضة ستعكف الباذنجانة على تنظيفه وهي تعتقد أنه سيكون جميلاً لو رآه الولد الذي تحب وحكت كيف كان لها جدة أتت من نابلس في هودج وقافلة طويلة من الجمال.

❋

- بيت مين ده ؟

- بيتنا.

- وبيت مين ده ؟

- بيتنا.

- وقبة مين دي؟

_ بنت السلطان.

- فيها أيه ؟

أرجوحة نصبها لها بين كافورتين ثم طوحها . في الليل رأت الزهرة وبنات نعش ورفيقات القمر، وفي النهار. كانت ترى البنات من خلف سور البيت بأقمطتهن الزاهية، يجدلن الخوص وسيقانهن في الماء، وصوت غنائهن يطوحها إلى أعلى ثم يغيب، أرجوحة بجانب السلم ، وعلى سوره الدرابزين كان الولد الصغير -أخوها- ينزلق وهما يكملاّن الأُحجية:

- فيها أيه؟

- خوخ ورمان.

- فين نايبي؟

- تحت اللقان.

يتسلقان النافذة ومن حديدها يطلان بساقيهما على الفراغ ويصفقان:

- واللقان فين ؟

- كسرته العِجلة.

يغمسان ألواح البسكويت في صينية القلل، صينية القلل حين تسقط يركضان ومن تحت سرير "ستي" يكملان

-وفين العجلة؟

-دبحناها.

تتأرجح أكثر، وفي "البلكونة" المطلة على الأرجوحة تجلس صويحبات الملكة ويضحكن. في كل ساق لها أكثر من جرح وكدمة ، غرزتان عندما سقطت من على سور البيت ، شق طولي في فخذها حين تشعلقت في مزلاج الباب ، واحد حين سقطت من التوتة وآخر حين ركض الديك الرومي وراءها في الفناء ، ونابان لكلب الجيران الذي عضها وهي تركله بالحصى وندوب كثيرة أخرى لم تعرف أسبابها ، ترفع طرف فستانها وتتأرجح ، وحين يكفّون عن المضغ والضحك ستلوى إحداهن فمها وهي تربت على ظهر الملكة مواسية: "سبحان الخلاق ، الذي يراها لا يصدق أنها ابنتك ياملك"

ربما تدارى الملكة وجهها بكفها وتضحك إذا كانت الباذنجانة ترقص بانهماك شديد ، أو تقضم شفتها وتغمز لها بحاجبها وهي تحدق

فيها بنصف عين محذرة ، وكانت تلك الإشارة كافية لجعلها تكف عن أى شيء تفعله وإلاً فإن فخديها سينالهما مزيداً من القرصات التي تترك خلفها بقعاً جديدة داكنة مائلة للزرقة، لاتكاد تغيب حتى تظهر بقعاً جديدة وبذلك تعود الباذنجانة لطورها الأول بامتزاجها بهذا اللون الخاص جداً بها.

وحدث أن ربطتها في ساق الفراش مرتين، مرة "الدبوس" ومرة حين ضبطها وهي تجمع أعقاب السجائر وتفركها، وتضعها في ورقة تخبئها لجدتها "ستي" فضربتها، وأصرت على ربطها في ساق الفراش ساعة، فجمعت الباذنجانة، بعد فكها كل ملابسها، وصرتها في مفرش الطاولة وقررت أن تهرب، ثم أثنت نفسها بنفسها عن تلك الفكرة واكتفت بالاعتصام أمام باب حجرته، كان البلاط شديد البرودة، وصدرها ينحر بالكحة رافضة أية مصالحات بعناد دابة حرون. ظلت مرتمية أمام باب غرفته حتى جاء ، وبعد فترة من المصالحات والنشيج والتوعد لمن يغضبها بعد هذه الليلة بالزعل والخصام، طلبت منه في وشوشة غير مفهومة "كريم يبيضنى" أى كريم يجعل منها بيضاء ، ولم يعرف كيف يكتم قهقهتة رغم أنه كان حريصاً على مشاعرها ، قبّلها وهو يحيط فكيها بيديه، فكها سوف يصبح عما قريب مادة للتندر ، وستكف الملكة عن قرصها وعن تأمل ساقيها لأنها حين تسقط من على الأرجوحة التي تطوحها للسماء لن تسقط على جذور رقبتها بل على فكها العلوي الذي سينشطر نصفين، تاركاً خواءً وكسوراً سوف يقوّمونها بأسلاك رفيعة دقيقة من المعدن ، تخرج وتدخل من وجنتها ومن أسفل ذقنها تاركة مزيداً من الخدوش والجروح والعلامات، ورأس كبير متورم، ونصف شعرها الأمامي محلوق كي لا يلوث الجرح ، والنصف الثاني تركوه بعد أن بكت بحرقة، لم تكن تعرف أن هذا العرف الذي تركوه في مؤخرة رأسها رغم أنه أسود وكثيف وجميل ستبدو به أكثر قبحاً ولن ترى أبداً

في هزة رأسها المتورم سوى خشخشة حلق طويل كانت تحلم به ، وحذاء بكعب عالٍ وفستان بكرانيش و"كريم" في علبة تخصها ، كل هذا جاء دفعة واحدة بعد أن حرصوا علي أن يخفوا كل المرايا ، وتبقى في فراشها تهز رأسها وتضع الكريم، وهو يطبق عباءته ويضعها على ساقه وهو يحكى لها عن الجدة "عجبة" التي غنمها جده من الأدغال. يمد من بين الأسلاك التي في فمها خرطوماً دقيقاً تشفط به العصائر وقد يكمل حكاية "عجبة" بحكاية يونس الفارس الذي قتلوه في الخان، وقد تنام فيضمها أكثر، والملكة ناريمان تضع رأسها بين كفيها وتجهش في البكاء، وبنات صغيرات لهن أربطة ملونة وبأقدام صغيرة يصرخن بعد أن يلقين بعلب الحلوى ويركضن من الهلع وقد تحول وجهها إلى كتلة لحم معجون بها ملامح، بعد أن تزول الصدمة قليلاً سيلتففن حولها في فناء المدرسة ويدقدقن بأرجلهن في الأرض

-فين دمها؟!

- شربوه العصافير.

- فين العصافير ؟!

- فوق الأشجار.

يخرجن من وسط أسنانهن ألسنة صغيرة حادة تخرج وتدخل:

- سيسي ياسيسي ياسن الفار.

- سن النجار أبو منشار.

لن تُخرج لهن لسانها لأن لسانها محبوس بين قضبان الحديد المغلق، ستوزع عليهن الحلوى أو الأقلام الملونة وتجلس في درجها

وتصمت وتنظر في تشققات الخشب، مدعية كل مرة أنها ستكشف شيئاً أكثر غموضاً من أن يفهموه، وحتى عندما نزعوا لها الأسلاك المتشابكة التي كان ينفذ منها الريق وتختزن الكلمات فقد كان فمها لا يصلح إلا للتهكم والسخرية ، ورغم كل ماحدث لها فلم تنزل من على الأرجوحة ، تصعد وتهبط مرات عديدة. الشيء الوحيد الذي أضافته لجروح وجهها هو أن أمسكت في يدها قلماً ،فشلت وهي لا تفارقه أن تصبح "قاموسا" كما كانوا يطلقون على "أمل" التي لا تخطيء أبداً في إجابة أي سؤال ، وكل كشاكيلها مليئة بالنجوم، وإن كانت تقتسم معها بعض التصفيق خاصة في حصة الهندسة لأنها تعرف زوايا المثلث، وتحسب انحرافه بمجرد النظر ، كما كانت ثأثأة لسانها واحتكاكه بشفتها العليا تخرج الكلمات في حصة الفرنساوى بشكل يعده مدرس الفصل جميلاً ، لم تستطع رغم ذلك تعلم غرزة الحشو أبداً وإن اجتهدت في غرزة "الفرع" مدرسة الأشغال تعبت في إفهامها ، فلم تكمل مفرشها ولم يحتفظ لها بأي منتجات في غرفة النشاط سوى ببعض الزهور والفراشات التي جففتها وألصقتها على ورقة سميكة. وكتبت بالخط الرقعة "كل عام وأنتم بخير" خطها لم يكن جميلاً في "الرقعة" ولم يكن سيئاً ، كان مقروءًا ، وهكذا قالوا لها وصفقوا "لزينب" لأنها خطاطة . اجتهدت كثيراً في تحسينه ، كما اجتهدت في رسم لوحة عيد الأم لكن أحداً لم ير لوحتها عبقرية ، رغم أنها رسمتها بألوان الماء والفلومستر وجلست قبل تسليمها تتخيل الاحتفال بها ، صفقوا "لمايسة" لأنها فنانة ، وخطوط قلمها الرصاص الذي لا تستعمل غيره غاية في الدقة والمرونة والانسيابية ، هكذا قال أحد الزوار وهو يتأمل لوحتها التي غلفوها بإطار ، لم تبالي بهذا ، رسمت وطرزت أشكالاً وأشياءً لم تكن جميلة للغاية لأن طاقتها على الصبر كانت تنفد قبل استكمالها . غلبت سعد باشا في بعض أدوار الشطرنج ، ولم يكن حظها

حسناً في لعبة السلم والثعبان ، وكان "نادر" أخوها يسبقها دائمـاً فـي حفظ أسماء الأفلام والنكت والأحجية، ويستطيع أن يتذكر أية نكتة دون أن يراجع مجلة "البعكوكة" ودون أن يتوقف، وكل مرة يجوّد في طريقة حكيها ، وإلقائها وإذا قاطعته في إلقاء واحدة كانت تنسى بعض تفاصيلها ولاتجد في نهايتها أحداً يضحك سواها ، كما كانت تنسى الأغاني التي تسابقا في حفظها رغم أنها اشترت كتاب أغاني "عبد الحليم"، وتشاركه مجلة الكواكب وتانتان وميكي وسمير ، لكنها كانت تنسى دائماً وفي منتصف الحكاية أو الأغنية تُدخل الشرق في الشمال ولا تكف إلا حينما تكتشف أن أحداً لا يلتفت إلى ما تقول، خاصة أمها التي كانت تركز نظرها في انفراج شفتيها، وميل الشفة العليا، والجرح الطولي بينهما ، فهي رغم كل التعديلات بإزالة الأسلاك المعدنية ونشر سنة هنا وأخرى هناك، اعتدل معها الفك قليلاً لم تستطع أن تكون لطيفة إلا إذا أغلقت فمها .لم يكن لها لذلك صديقات كثيرات ، فلم تكن تعرف إذا أغلقوا باب الفصل كيف ترقص ، وكانت حواجبها مخطوطة، ولا تحب أن ينتف لها أحد زغبها ، كما أن فمها لايصلح للقبلات ، ولهذا فليس لديها أي أسرار تحكيها لهن .

تتأرجح على الأرجوحة بإصرار . تحاول أن تكون أطول قليلاً، فتتعلق بالأشجار لتزيد ثلاثين سنتميتراً على الأقل إذا أصرت أن تصبح عالمة فضاء أو عارضة أزياء ، حملت فوق رأسها طوبتين وركضت في الحديقة متعلمة بذلك تمارين حفظ التوازن ، وتشقلبت بجوار الحائط كي يهبط الدم إلى الدماغ فتصير عبقرية، أو تُحَمِّرُ خدودها فتصبح بقدرة قادر "شيرى تمبل" .

وبعد تجريب كل الأقنعة ابتداءً بالتفاح والعسل، والزبادي بالليمون،

والرّدة باللبن الرائب، وشرب كوب ماء دافئ على الريق، والنـوم مبكـراً، ووضع كمادات شاي على عينيها، ودفن رموشها بزيت الخروع . نظرت في المرآة ، حدقتها في حدقتها ولاشيء سوى التطوح على الأراجيح .

تقف على طاولة الفصل وتصمت ، تكتب أسماء الذين يثرثرون فيكتبون لها في الأتوجراف "هل أنت شخصية قيادية أم منطوية؟!" تدفس رأسها بين كفيها وبعد وقت طويل تعرف أنه من الممكن ، لو أغلقت الباب عليها وبعد شرب القهوة وأعقاب السجائر ، وبالموسيقى الخفيضةأن تنجح في كتابة قصيدة . مر وقت آخر ولم تكتب سوى مطلعها

"أنا لا أصلح لشيء".

*

مدرس الفرنساوى

مدرس الفرنساوي طويل جداً ونحيل ويناديها بست الحلوين . عندما كان يخط بقلمه الرصاص بين الحصص كان يرسم وجهها ، ويسمى خدوش وجهها خربشات القطة نونوش "ونادر" أيضاً يدللها بذلك اللقب ، وسعد باشا كان يقول لها نونوش الى جانب ست البنات، وحبيبة بابا ، وست الحلوين ، كان يقول ذلك وهو يطوحها قبل وقوع "الحادثة"، بعد الحادثة لم يطوحها ، ولم يعد يخبئها في عباءته، أو تنام معه في فراشه، وإن ظل يناديها بنفس الألقاب .

مدرس الفرنساوي كان يكتب على الطاولة وينظر لها ، لا تدقدق بكعبها ضجراً ، لاتعبث في شيء ، تنظر فقط باتجاهه والألم هناك أسفل بطنها ، وهي تحب أن تجلس وحيدة في طاولة الدرس ، وإذا شاركها أحد ، فلن تكون إلا" هند" لأنها ليست أجمل ولا أذكى، هي فقط ترافقها كظل، الألم لايزال يعجزها عن الحركة ، ينظر لها .

لاتنظر لي لن أقوم ولن أجلس ، ولا أريد أن يصفق لي أحد هذا النهار ، وقل لأبي ماتشاء عن شرودي ، على الحائط آثار لوحات مدقوقة ، سأتابع الشقوق ، وفي اللوح الأسود خدوش الطباشير ، تشبه خدوش وجهى، وعلى الدرج قلمي، خط أشياء كثيرة ثم محاها ، والألم أسفل بطني، وتحتى بالضبط شيء لزج لونه أحمر تنتظره كل البنات في

الفصل أن يزورهن ، وهاهو يختارني ، أمي ستقول إذا تسلقت الكازورينا "ضمي ساقيك أنت كبرت" وهو حين يجلس على فراشه سيهز رأسه موافقاً على كلامها مطالباً إياي أن أغسل قدمي على الحوض المنخفض والألم الذي يفاجئني على طاولة الدرس سيزورني كثيراً، وستتحدث أمي عن صوتي الذي يجب أن يبقى منخفضاً، وعن فمي الذي يجب أن يغلق تماماً خاصة في حضور ضيفاتها ، وعن ضحكتي التي يجب أن تكون قصيرة ومهذبة وبمناسبة، وسيبتسم البعض إذا تركت شعري ويقولون لها "كبرت ندى وصارت عروساً". أمي لن تفرح، أعرف ذلك من انقباضة ملامحها حين تتكرر الكلمة ، وستقف أمام مرآتها ، وتراقب انثناءات خفيضة تطفر تحت جفنيها، وستتحدث معه بأسف عن أشياء صارت لا تليق بسنها .

وأنا هناك على طرف الوسادة ، مسموح لي أن أبكي وأتساءل "لماذا تطردني من حصتك؟ لماذا غيرت رأيك ؟ فلم أعد ملاكاً وأنا أتأتيء بحروف مكسور نصفها أوتصفق "ترى بيان" ويضحك البنات وأنا أخرج وبجوار الحائط أقف ، لأنتهز فرصة وقفتي لأرى هل مافي إصبعك ذهب أم فضة ؟! أتناول عقب سيجارتك خلسة لأدسه في حمالة صدري ثم ألملم أشياء تافهة أخرى وأحملها كتذكارات منك ، سأبكي والمنديل المكتوب عليه حرف اسمي "نون" ملقى تحت قدمي بجوار الحائط ولاشيء يجفف دموعي ، و"هند" هناك ، بمواجهتي تداعب خصلة شعرها وقد تربت على ظهري بعد قليل، وتدّعي محبتّي. أنا لا أجرؤ على سؤالك "ماذا فعلت؟! لماذا تخاصمني؟ ستلقي بالطباشيرة حين أحاول ذلك ، ومن الزجاج المكسور تشوّح بيدك بالضبط تصيب الهدف فتخرج القطعة وتنظر باتجاه مروقها وتقول: "لا أريد أن أسمع صوتك نهائياً، نهائياً ،

مفهوم ؟" عند انحناءة السلم ، في طرف المعمل ، على المقعد كانت" هند" تحدثك وتنظر لي بطرف عينها وتضحك بهاتين العينين الضيّقتين الحادتين، وبعناد ، بعناد فقط كان على أن أواجه كل شيء. أمي التي تجلس أمامه وتحتسي الشاي ببطء وبينهما محابسها التي سرقتها ، ومنديل يدي وحروف اسمى مبقعة بالدم وورقة صغيرة كتبتُ له فيها "لماذا تخاصمني أنا لم أفعل شيئاً، أنا أحبك".

أشياء أخرى لم ألمحها. كنت بالباب أستعد لأقبّل أبي قبلة الصباح وتستعد أمي لمراقبة هيئتي قبل أن أخرج ، لكن لمحت هذه الأشياء بينهما فوقعت عينى على الأرض ، لم أكن خائفة ، كنت خجلة فحسب . ولا أعرف كيف أرفع عيني في عينيه لأقول له "أنا بنت مثل كل البنات". وقفت طويلاً لم يقل لى تعالى ، لم يرفع عينيه باتجاهي ، ظل يهز أصابعه، ويلقى بأعقاب السجائر بتوتر ولا ينظر لي.

أنا لم أفعل شيئاً في الفصل، كنت أفك جديلتى في حصة الأشغال وأضع محابس أمي المذهبة في رأسي فتتسابق البنات لتصفيفه ، أنا اليوم عروسة ، ويدها التي كانت بجانبي تخز في الإبر والخيوط وتنقط دماً مسحتها في منديلي، قبلتها بين عينيها وقلت لها يا"هند" نحن شقيقتا دم ،فأخرجت الخبز الناشف من حقيبتها وقرأنا الفاتحة عليه، ثم عند انحناءة السلم كانت تحادثه وتنظر لي، وأمي التي تقف الآن بينى وبين أبي وبينهما المحابس كانت ترمقني بنفس النظرة .كنت سأردها، فقط أفك شعري مرة واحدة كي يدرك أنه ليس مخدوعاً ، سيرانى بعدها جيداً ويناديني ثانية بست الحلوين، ويكتب لي في الاوتجراف "أنت ملاك".

بعناد أكثر أبتلع دموعي ولا أتكلم ، أمي لازالت تشرب الشاي ببطء وفي عينيها انتشاء بهزيمتي ، بنت مثل كل البنات ، تسرق من

صوان أمها أشياء مبهرة لأنها بلا صوان ولا صحيات ، وتكذب أحياناً لأن أحداً لم يكتب لها خطابات ، وصارت لا تريد أن تصبح عالمة فضاء ولا طبيبة ، صارت تطمع أن يكلمها مدرس الفرنساوي بعد أن قال لها آخر مرة "لاأريد أن أسمع صوتك نهائياً" .

*

منامات

بمهابة،

كان يطالعني في الأحلام

كما ينبغي للموتى أن يظهروا

باسمين.

وبهدوء يضعون في أفواهنا قطع السكر،

ويلوحون في بياض الملائكة،

ويخرجون من جرابهم أمنياتنا المستحيلة.

طالما رأيتهم ، يأتون ، يعبرون ، يشدون خصلات شعري ، ويتورم رأسي ثم يرتطم جسدي بكل شيء ويتناثر فوق المسافات . بقع دموية داكنة ، كنت أراها في المرآة تكبر وتكبر وتنفجر ، ويأتي ، يلملمه ، ويعقفه ، يحملني بين ذراعيه ، ثم يفرد عباءته ويطويني.

قلت له ذات يوم "أريد أن أصبح عالمة فضاء " ، فضحك. وقالت أمي "أفسدتها بتدليلك" ، ولم تعبأ ، وحملْتَني بين ساعديك ، وضممتني ، وأشرت بيدك للزهرة الساهمة في فلك السكون قلت لك "ذقنك تؤلمني"،

ومازالت بصيلات الشوك على وجنتيك تخدش لحمي الطري .

الفصل طوب أخضر لبن ، عال وفوق هامته سقيفة من الأخشاب، والنوافذ واسعة ، تفتح صدرها للسماء ، قال وهو يمسك بمعصم كفي "أنظرى". كان وديعاً ، وطويلاً ، اضطر لأن يقرفص حتى يكون في مستوى طولي ، ولمحت عينيه لأول مرة عن قرب، كانتا صافيتين وكانت بصيلات الشوك تبتسم لي ، والعرق ينبض في معصمي، ينقره باصبعه ويتحسس النبض وأنا أضحك ، وأحبو في كل العوالم التي كنت أحلم باقتحامها ، والنبض والدقات تتعالى، وحين أغلق الباب وأشعل الثقاب في عود البخور ، وتصاعد الدخان الداكن ، كانت دقاته في صدري تتعالى ، وكان صوت النبض يأتي من بعيد. قال إنه صَعِدَ ، وكانت السماء مفتوحة ، وفي السماء الأولى كانت الملائكة ، وفي الثانية كانت الرسل ، وفي السماء الثالثة كان الجحيم ، وفي الرابعة كان الموت، وفي السماء الخامسة كانت السِدْرة ، وفي السماء السادسة كانت الصفوة، وفي السماء السابعة كان العرش ، وتحسست نبضي، كان الرب تعالى يدفع بأمره إلى النبض في الشريان، بكيت ، بكيت ، ذلك النشيج ظل يلازمني حتى بعد أن فتحوا النوافذ ، وانتهت الحصة ، والدخان لونه أزرق داكن ، و"هند" الجميلة ذات الضفيرتين تقول "إنه يرعبني" سأكتب له خطاباً كي لايغلق النوافذ ، ثم أن صدري يؤلمني من بخوره.وحين قرأه علينا ، قال لها أخلطي بيضتين بكوب لبن وملعقة سمن على الريق ، وسيطيب صدرك ، وخجلت هند ، ولم تعد تشكو من صدرها.

وحين قلت له إن "إميل" ابن الناظر مريض ، ضحك ، ولم يعلق . وحين زرناه في بيته رأيت صورتها على الجدار ، كانت جميلة جداً فأحببتها ، ونظرت إلى معصمها حيث يكمن النبض ، رأيت صليبة زرقاء مدقوقة ، ابتسمتُ .كانت أول مرة آكل فيها السجق ، و"إميل" يحمل لنا

القطع الصغيرة في لفات الخبز . قال لأبي "إنها ذكية جداً ، وستصبح ذات يومٍ شيئاً عظيماً، "فذهبت في اليوم التالي للمدرسة ، وعلى رأسي غطاء أبيض كما رأيته في صور العذراء، وكانت السماء ترسم لي عبر النافذة وجوهاً بيضاء لكائنات خرافية تشكلها السحب. قال "إميل" إن العذراء تجيء إليه في المنام ، وإن جلدها شفاف وشديد البياض ، فدعوت الله بجلد أبيض مثل وجه العذراء وأن ينبت لي وردتين في صدري مثل صدر" هند".

كانت خدوش وجهي تزداد تحفراً، ولاشيء ينفع معها ، وظللت أبكي حتى وأنا بصحبتها نتلصص على الرواق الرخامي ونرقب صنابير المياه وهي تسيل في القناة المنحدرة حتى بالوعة الماء . شمرتْ هند ساقيها وبدأت أنفاسنا تلهث ونحن ننظف الرواق ، سكبنا المسحوق على الأرض ، وبدأنا بحك الطمي فوق الرخام ، وأعيننا تراقب شيخ المسجد الذي قد ينهرنا إذا ضبطنا بداخل الرواق ، كان صدر "هند" يعلو ويهبط ، وقلبي ينزوي ويبكي ودخانه يتصاعد من شقوق الحائط الطويل الداكن ، وكف مدرس الفرنساوي تتحسس وردتي هند باشتهاء ، والنوافذ مغلقة والضوء خافت ، والسماء لا تزال مختفية ، والماء ينزلق تحت قدمي فأسقط ، والشيخ يصرخ "اخرجا لعنة الله على من أنجبكما ، لطستي الدنيا ياملعونة منك لها ". يلقي بأحذيتنا في كل الاتجاهات وساقا "هند" ترمحان ، وبقعة دم تقطر من أنفي فأشعر أن وجهي يزداد خدوشاً، يفتح أبي عباءته ويضع رأسي على ساقه والثلج على أنفي فأنام . في النوم أتسند على حائط ، الحائط يمتد ، يصبح ليلاً صيفياً رَطباً والنافذة الوحيدة التي أخبئها لا تزال مفتوحة على السماء، أتململ في فراشي وأراقبه. الشعاع الضئيل يكبر ويكبر ويقتحم الغرفة ، صار في مواجهة فراشي تماماً ، أنقل الوسادة وأفتح صدري وأعانقه ، أراه دائماً وجهاً يبتسم ، وربما

يحادثني وربما يشبه وجهه ببصيلاته، التي تخدش أرقي ، يدور من سحابة إلى أخرى يعانق الغيوم الكثيفة ، يترك صدري ثم يأتي صوت "عواء" من هناك ، حيث كان يربض فوق القش المبلل ، وكنت أعرف أنه يربض دائماً هناك ، واهناً ، بجرح طولي أسفل إحدى عينيه ، حيث كان يتعارك على إحدى وليفاته، صار عجوزاً ، أعرف ذلك من عينيه فقط ، لأنهما لم تعودا تلمعان ، وأذناه أصابهما بعض الانكسار ، يعوي، ثلاث ليال وهو يعوي ، كان فيه شيء مبحوح مؤلم ، وكنت أعرف عواء الذئاب في حقل الذرة المجاور كانت جارحة ، متحفزة . عوى كثيراً تلك الليلة ، هبت الخادمة من فراشها إنها دائماً تهب هكذا " اللهم اجعله خير" إنه يعوي منذ ثلاثة أيام ولم يحدث شيء ، قلت لها ذلك فبدت كأنها لم تسمعني قفزتْ إلى حيث رُشقتْ الآنية على حافة النافذة ، وتطلعتْ إلى القمر ، شربتْ ثم عاودتْ التسلل إلى الأرض حيث افترشتها ونامت ، قلت لها "لابد أن نقتله"، لم ترد ، "أصابه الجنون "..." ، كل يوم يفزعنا هكذا ؟! " ، نامت ، سمعتْ صدرها يعلو ويهبط ، ولم أنم وسمعتها تهذي، "شفشق الشربات الكبير انكسر" .حاولت النوم ، كان جسدي مازال القمر يستبيحه، ونمت ثم رأيت أكوابه تتحطم. ظللت في المنامات أرى الجدار الطويل الداكن نفسه، أتسند عليه وأنفي ينزف ، أتكوم بجانبه مثل بقعة دم وحلقي مليء بالنشيج ، وكانوا يأتون .. يجذبون الجسد المتكوم فيتحول إلى جثة مصلوبة ، وقلبي مقبرة ينبت فيها العشب من جثتي المتحللة ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتركوني ، جاءوا ، كانوا تلك المرة يطلون من حدقة امرأة بعيون جاحظة ودميمة . وجاءتْ ، فعلتْ نفس الشيء ، لطمتني على وجهي ، قلت لها " الأولاد ملء كل الشوارع" كانت النافذة أمامها مكسورة ، والزجاج المشروخ يعكس كل شيء في الفناء المواجه ،

وكانوا يركضون ثم يطوحون الكرة الحائرة في السلة. لطمتني على وجهي ، كانت بدينة وبيضاء ، وعيناها تستديران مع إطار نظارتها ، وجدائل شعري تنساب مع الملح الذي تساقط من الحدقات ويلل أطراف شفتي. جذبتني من ياقة القميص ، كان أبيض ، ويدها ثقيلة وملبئة بالخواتم الجاحظة بنتوءات ، دفعتني الى الجدار ، فانفلت الزر الرقيق من ياقته ولمحت جسدي ، وكان أكثر بياضا . بلعت الملح ، ورشفت انكساراتي ، ودمها يصعد ويهبط ، وعيناها تروح وتجيء بين الجالسات في المقاعد والنافذة المكسورة وباب الفصل حيث كان يرقبني بتوتر. وأحيانا بمحبة . أتمسح في عينيه ، أرى أنفي يرف . انتظر أن يضع رأسي على ساقه ، أن تسرح كفه إلى شعري . لكنه لم يفعل، يزداد اضطراباً كلما تحرك فمها . وضحكت "هند" في آخر الفصل واستمر النزف ، وتساقط الدم على القميص الأبيض وأحسست بوجهي تتكاثر فيه الجروح.. قال بتردد: "إنها رقيقة ومهذبة " تبتسم له بسخرية وازدراء وتقودني أمامهم ، تجذب محبس شعري المفضض ، وتلقيه على الطاولة ، ثم تنظر أظافري وتقول "حوافر" ثم تحكم غلق الباب في الغرفة شحيحة الضوء والطاولة المتربة ، والزجاج نصف المكسور والمقعد المتهالك ، وتمضي الساعات طويلة وأنا أسمع الركض والصراخ والضحك من ثقوب الضوء، والكرة مازالت في الفناء الملاصق تركض بين الأكف، وتسقط في السلة المتدلية. انكفأت على الورقة، رسمت الأسهم والقلوب الصغيرة نفسها، "مهذبة رقيقة" أنقشها بالوجد نفسه وأضحك وأدور حول نفسي ، وترمح اللوحات على الجدار ، قانون نيوتن وجدول منديليف ، والقلوب المكسرة تعكس آلاف الأسهم "لماذا تنظر لي هكذا ؟! ولماذا لا تسأل غيري طوال الوقت ..هل تحبني؟! "أطقطق بحذائي وأنا أخطو

مطرودة من حصتك وأقف على الجدار المواجه للفصل وأحسه أسوداً وطويلاً ، وداكناً، أستند عليه ، تتبعنى صرختك " وقحة وقحة"..'رقيقة ومهذبة"؟! أضحك بسخرية وهي تضبطني متلبسة بتهمة التلصص على فناء الصبية وهم يتبادلون رمي الكرات في السلة المعلقة. رأسي يتورم وأشعر بقطرات الدم تسقط على الطاولة ..وأراهم يعبرون، بعيونهم الجاحظة يعبرون ، مابين وعيي وموتى ويجذبون أطراف جثتي باشتهاء.

*

حكاية

في الثالثة والأربعين من عمره يبدو جميلاً ووسيماً له عدة أبناء..يشكلهم كما يهوى يلتفون حوله كالأرانب فيحكي لهم ما يشاء من حواديته ..ويصدقون!! يتلحسون في أقدامه يقرأ معهم مجلة البعكوكة..ويضحكون ثم يُطيرّهم في أحلامه كالعصافير له امرأة جميلة أكثر، يقولون له : ليلى مراد فيفرح ويقولون : إنها حبيبته كانت له منذ ولادتها ويشير إلى ندبة في مِفْرق شعرها ويبتسم ، لأنه علمها الأدب على طريقته ينام على حجرها، فتغني له كانت له أيضاً حديقة كبيرة، زرع على حوافها المستكة وعلى الشرفات علق الياسمين، وكان بإمكانه أن يزرع فيها ما يشاء من ورد، أرض واسعة وفلاحون يقبّلون يده وآخرون يلاحقونه بالدعوات، نسيتُ أن أقول لكم إنه كان طبيباً، في يده مشرط وفي ثيابه بقعة دم. كان أحمق للغاية فكيف يترك هذا كله ليقلب بين النشرات والصحف عن أشياء تؤلمه؟! وكيف يسمح للجلطة أن تفاجئه وهويتحدث عن الفساد والإحباطات وخيانات الأصدقاء، كان ساذجاً يعتقد أن هناك "لافتات كبيرة"تصلح للتفاني فيها.

كان يكذب أيضاً مثل كل الرّجال ويحدثني بالليل وأنا أعبث بشعره عن بلاد بعيدة سوف أركض فيها، وعن شعور بلا ضفائر أو محابس، ووجه به أسنان متسقة، وأنف أصغر قليلاً، وبيت يسع رجلاً آخر معي، نُلوِّح له في الصباح فيُلقى علينا الورد وفي المساء.. نشاركه الثرثرة ثم

نتركه لينـام علـى حجرهـا سـوف يفـرح كثيراً حيـن أصبـح عكـازه وهـو يسعل، ويلاعب صغارا يقول إنهم أعز مني، كان يكذب ويغمض عينيه ليغازل ميتةً أكثر شجناً تليق برجل مثله.

※

ولد صغير يدقدق بطبلة

ولد صغير ، كان يجلس بجانبي على حافة النافذة ، ومن الحديد نطل على الفراغ بساقينا ونغني:

"من تحت شباكنا هوه الحليوه اللي فات".

يدقدق على الطبلة وأشاركه الرقص ، أصحبه إلى المدرسة في يدي . وحين تضربه البنت التي اسمها"عبير"على وجهه وهو يقول لها"عمرك دقت الفسدق؟! عمرك دقت البندق؟!" وستضع يدها في خصرها وتتلوى وهي تشتمه "أبوك بيشرب خمرة " "أنت عيل"، "عيل خالص" سترفع حاجباً وتنزل آخر ، وأنا أقفز فوق ذراعها وأقضمه بسنة وحيدة . بعدها تقرر أنك لن تدخلها بعد ذلك أبداً، وستحملك لتصير ابناً لائقاً بها ، مهذباً ورقيقاً باسماً وحانياً تقبل صورك وتمرر على صويحباتها شهاداتك من "مدرسة القلب المقدس" . المفروض أن أكون معك منذ أعدّت أمي الحقائب وقالت بحزم "كلنا تعلمنا في المدارس الداخلية "، فضم أبي إشفاقه وهو يسوقنا أمامه ، "بنجور، كومن سافا" انحناءات خفيضة ينحنين بها بنات بضفائر وأقمطة بيضاء ونوافذ مسيجة بالحديد ، وأوامر صارمة بأن يكون ظهري مفروداً، وصوتي خفيضاً وأن أتعلم كيف أخلع ملابسي وأبدل ثيابي، لاأحد سيبتسم أو يجامل شقاوتي، والأم "ترايزا" تجلس في الحديقة ، نقبل يدها ونردد وراءها" الحبة الميتة

تشق الأرض بمنجل الحياة، سبحان الرب الذي أعطاها القوة، سبحان الرب الذي أعطاها الحياة. إنه أعطاها ذلك كي تصير نافعة..نافعة للآخرين" .لكن الأشباح لن تكف عن مطاردتي في الممرات وهي تردد التراتيل..، التراتيل الغامضة التي أسمع صداها في مناماتي ، مقبضة ، وسُعالي يخيف الناعسات في الفراش المجاور ، سأظل رغم افتراقنا أكتب لك الرسائل وستظل فتى بحقائب وأنا التي أفرغت حقيبتى مبكراً أجلس بجانب اثنتين في الشرفة لانتظارك.

لاتخاصمني سأصالحك بأن أضع رأسك على حجري وأغني لك ، "من تحت شباكنا هوه الحليوه اللي فات". لاتشدني من شعري لأنني أمشي بجانبك على الشاطىء بشورت قصير، لماذا صرت تكرهني إلى هذا الحد؟! لأنني صرت أطول منك كثيراً وفمي أصبح أكثر استدارة رغم كل الخدوش ، وفي صدري وردتان مثل وردتي عبير ؟!

الولد الذي كان يدقدق لي على الطبلة كبر الآن ، ترش ستى الملحات وترقيه بعروسة من ورق " من عين أبوك واللي يكرهوك" وستسحبه أمي بعيداً عن يدها الخشنة والحصوات المرشوشة، لن تقول له "عجوز وخرفانة.متى تريح نفسها وتريحنا" ولن تدع الله أن يأخذها قبل أن تصبح ثقيلة هكذا ، لأنه يغضب ويحبها، ولأنها لم تصبح ثقيلة حتى الآن ، فهي ترى بوضوح ، وتستحم وتضفرشعرها وتغسل ثيابها ثم تصلى الفجر وتعبث في مسابحها، وتحت وسادتها أوراق الحناء، وفي شرفتها القلل معطرة بالمستكة، وربما بزهر الليمون إذا أزهرت الحديقة، ستعد له "الكسكسي" وتفرك العجين بأصابعها وتغنى له "من تحت شباكنا حَنَكُه ينقِّط عسل".سيصفق لها حتى وهو يملأ العين والبصر، ويعرف أنها تفرح بأشياء حقيرة جداً ، قطرة لعينيها ، زجاجة عطر رخيص ،

وتشارك أمي في تذكر أوجاعها في حضوره .

الولد الذي كان يدقدق لي على الطبلة قال إني كافرة، وقذف بزجاجات البيرة من رف الثلاجة على الأرض ، وسعدباشا الذي رآه ، لم ينظر له ، دخل حجرته وأغلقها جيداً وأدار مؤشر المذياع وكان الخوميني يخطب "ليس دمنا أغلى من دم الإمام الحسين الذي سال في سبيل الإسلام"، وعمر التلمساني يقول للسادات "سأشكوك لله"، والغرفة التي تعبأت بالدخان لم يجرؤ أحد على فتحها.

في الطرقات المعتمة، يجري الآن ملء السمع والبصر ، يرتدي المعطف الأبيض وأصابعه الطويلة لها رائحة الأحماض، وستركض الممرضات وراءه ، وربما يهمسن بعد أن يمرق ويضحكن، لأنه يخجل من أن ينظر في عيونهن ، سيدعي الحزم ، ويصدر أوامر صارمة، يحاول أن يبدو قاسياً، وكان أصغر من ذلك حين جاء بها ، ترتدي ثوبها الأسود وفوقه شالها الحرير، ومن أذنها يتدلى الحلق المخرطة ورائحة العطر الثقيل في منديلها الذي تجفف به دموعها وفي قدميها اللتين تجريان في الطرقات المعقمة "جزمة" جلد طبيعي ، وهو يسندها من سلمة إلى أخرى ويصعد بها ، وحين تفتح له أمي غرفته، وهو يبدو من بعيد ناعساً تحت الملاءات البيض، وتقول بأسف حقيقي "لايريد أن يراها " سيعود بها ، منديلها أكثر دموعاً ، تجرجر ثوبها وتجلس في الطرقة تبكي وتشهق وتقول لنفسها "مادام هوه بخير..خلاص" ستجلس أمي بجوارها ولن تبكي ، شعرها مشدود للوراء بالمحابس ، أمامها كوب ماء لاتشرب منه سوى رشفة واحدة ، وتضم يديها إلى صدرها وتنظر للسقف ، ولن تصدق أيًّا منهما أن الراقد هناك يمكن أن يموت هكذا مبكراً ، سيعود بعد بضعة أيام ، ربما يقبل أن يراهما بعد محايلة. ستقول له إنها مهما حدث أمك " وستدخل جدتي "ستي" تجرجر ثوبها وتجلس تحت قدميه وتقبلهما وتبكي ،

وحين تخرج ، سيقول للملكة إنه كان صغيراً جداً عندما أخذه أبوه من يده وقال لها "ابنك وحيدك يحتاج أم" وكانت فتحة صدرها مليئة بالعقود؟! فتعلق بها ، لكنها جذبت ذراعه من عنقها وقالت "مالي أنا ومال خدمة العجائز وهمّ العيال؟!، خذ ابنك واذهب للعظمة التي في مقطفك"، حمل ابنه ووضعه في حجر الشريفة ، وبعدها لم يرها .كان الأطفال يقولون له إنها تزوجت فلاناً وإن علاناً طلقها ولم يذهب إلا عندما صار العيال كبارا وقالوا إنه لم يبق لها زوج على قيد الحياة ولا أولاد، وإن الرجال عافوها رغم مايحكون عن جمالها ، فقد صارت شؤماً على من يعاشرها. وأنها مهما حدث أمه، تبكيه الآن بحرقة وهو يخرج محمولا إلى قبره.

"بوابته ياأم السبع لوحات، من تونس الخضرا وكيلك مات"

"بوابته ياأم السبع مسامير،من تونس الخضرا وكيلك مين"

تولول كما اعتادت بإصبعيها روحة وجيئة، وتزداد البقع الداكنة في وجهها ، تكشف رأسها الأحمر بالخضاب وتجلس أمام شرفتها و علىسلماتها القديمة بالطوب اللبن ، تطل بوجه صغير مرسوم بعناية . وبعيون لم يفقد لمعانها حزن ، وبجسد تتأمله حتى وهي في السبعين . تجر فرشتها وتجلس لتعدد، وفي صدرها العقود، وفي يدها الحناء، ولايزال شعرها جدائل طويلة. أمي ستقول "مثلها لا يكبر...ترمي كل شيء وراء ظهرها ولاتحمل للدنيا همًّا" بينما تحمل هي الهموم تجاعيد دقيقة تحت عينيها، وتنتظر ولداً صغيراً كان يجلس بجواري في الدفء.

اثنتان كل واحدة في شرفة ، واحدة تختزن في صوانها الملاءة التي لفت بها جسده وزجاجة العطر التي اقتسمتها بينهما ، نصف لغسله ونصف لغسلها ، وفي الأدراج رصت الأثواب والمناشف البيض، وأخرى أعدت للموت زجاجات المسك المكّي الصغيرة والبخور والروائح التي لا

أعرف من أين أنت بيه . و .ستار النساس الأبيض المضى ... سحابه ، وأحدة تحدثني عن قصة شادية وسمي .. نبي .. مراد وعن فستان زفافها المشغول بخيوط الحرير ... وأخرى تحكي عن فستانها اللميه المقصب بالتنتنه وأنها كفت علي ... الغربال يوم مولده وقالت "بنت" خوفا عليه من الحسد ، وأحدة ... من الصداع النصفي وتجفف دموعها في الشرفة. والياسمينة تلبط على أرضها موتى جُددًا. وأخرى تعدد وهي تحرك يدها بإصبعها:

"لو كان دمع العين يجيب حبيب، كنت أبكى بدل الدموع سنين"

"لو كان دمع العين يرجعهم ، كنت أبكى لما الدمع يوجعهم"

يمرّ زمن الحزن ويأتي الانتظار ، ثلاث صرن يجلسن تحت ياسمينة الشرفة، واحدة اسمها "ستى" والثانية كان اسمها الملكة ناريمان والثالثة ينادونها الآن "تى" ، والولد صار الآن رجلاً يفكر بالهجرة إلى مكان ما، يغلق عليه باب حجرته ويرفع سماعة الهاتف ليتحدث في أسرار تخصه مع امرأة قد يحكي لها أنه يحبني وقد لايتذكر ، يضم يديه من وقت لآخر بيسأل.. "بحبك وبحبك ما المطلوب مني بالضبط؟! " نسلم على بعضنا ... يدي في يده ويتركني هكذا. أعيد قراءة خطاباتي وخطاباته..

"نادر .نجحت ... قالت لماما..خلى بالك من نفسك. ماما بتقولك...وتعالى ...

"أخي نادر. بابا اشترى لي عصفورتين ، وماما حلوة بتقول لك ماتخلعش البلوفر الشتوي دلوقت".

"نادر..ماما ضربتني وبابا سافر شغله. أنا مش عايزه أقعد

معاها..مش بتحبني..تعالى في الأجازة مع خالو".

"إذا نجحت في الابتدائية بمجموع كبير ، بابا سيشتري لك بارودة رش ..هو بيقولك ولما تيجي في اجازة نصف السنة عايزة علبة ألوان مية.. واتغطى كويس.. ماما بتقولك"

*

" أخي الحبيب نادر ، ماما بتسلم عليك وبابا وهانم وعم محمد الغفير ، وماما تهنئك كل الهنا على تفوقك الباهر في شهادة نصف العام وتدعى لك أن يخليك وتحتفظ بمستواك الرفيع وتنصحك ألا تخلع ملابسك وأنت عرقان وتقى نفسك من البرد لتقي نفسك من الأمراض، وإليك هذه الفزورة..رجل أجرته خمسه جنيه في الشهر ويصرف كل يوم اثنين جنيه كم بقي مع الرجل..مع تحياتي

*

"نادر، أخويا الحبيب..أنا بخير واتعلم هذه السنة انجليزى..ماما أحضرت لي الأستاذ سيد يعطينى درساً في البيت وأنا سعيدة بذلك ، وأذاكر باستمرار وماما للأسف حزينة على وفاة راشد باشا "خالها" ، ستى بتسلم عليك كثير السلام، ونرجو أن تهتم بمذاكرتك وإليك هذه الأبيات من

الشعر كتبتها في وفاة جدى الله يرحمه:

"فتحت شباكى رأيت ملايين البشر

لابسين ملابس الحداد قلت إيه اللي حصل؟!

هية الشمس ماتت ولاانطفا نور القمر؟!

العود اللى كان بيطربنا انكسر منه الوتر "

*

"أخى الحبيب نادر..كيف حالك ، وحال مذكراتك إن شاء الله تطلع من الأوائل مثل كل عام ، أنا بخير وماما وستو ، هانم أنجبت بنتاً وأحضرنا واحدة اسمها سميحة تساعد ماما بدل هانم..أنا بخير وإن شاء الله سأكون من المتفوقين "

*

"قررت أن أكون عالمة فضاء ، بابا قال إن هذا ممكن بشرط أن أكون متفوقة في الرياضة والإنجليزي والعلوم وبابا بيقول لك إن شاء الله قريباً سيجعلك "خارجي" بدلاً من الداخلية ، وستأتي ماما وأنا لنكون معك وهذا يسعدني طبعاً ، وإن شاء الله ظروف عمل بابا تساعده لأنه لا يريد

أن يغلق العيادة هنا ، سيسافر لنا كل خميس وجمعة ، وإن كنا لا نستطيع فراقه لكن إذا كان هذا في مصلحتك هو موافق وإليك هذه المعلومة: الصاروخ "بومارك" هو من الصواريخ المضادة للطائرات ويحمل في مقدمته قنبلة ذرية لتدمير الصواريخ عابرة القارات ، وهناك الصواريخ التي تطلق من تحت سطح الماء إلى الأرض وقد أطلق الصاروخ "بولارس" في يوم٢٠يوليو١٩٦٠من الغواصة الذرية على عمق٢٠متراً تحت سطح الماء وكان أول صاروخ يطلق من غواصة وهو مزود برؤوس ذرية ويمكن توجيهه إلى أي هدف على سطح الأرض مداره٢٤٠٠ك م..المخلصة ندى"

*

"نادر..لاتحزن لأنك لن تستطيع أن تدخل ثانوى من الخارجية ، للأسف يانادر بابا مريض، وهذا مالم تعرفه وإن كنت ألاحظ أن صدره يوجعه، وقال لماما إنه يريد أن يموت في بلده ونحن بجانبه ، أنا أبكي باستمرار يانادر ولا أتصور أن يموت بابا أبداً ، مادة الفيزياء متعبة جداً للأسف وهكذا فقد قررت أن أنسى مسألة الفضاء هذه كما أني لا أحب أن أصبح طبيبة أطفال كما يتمنى بابا ، أعتقد أني سأكون شاعرة ، مدرس العربي قال إننى أكتب شعراً جميلاً وبابا يقول "في وقت فراغك" لكني لا أحب أن أصبح طبيبة، وإليك آخر أشعارى:

إنى راحل من دنيا الهنا إلى دنيا الشقاء والفنا

"راحل من عذاب حبي راحل من عذاب قلبي

وأتركم للأيام للأحلام   ربما تغير شيئاً من الذي كان".

*

"أخي الحبيب نادر..أرجو أن تذاكر جيداً فأنت أمل بابا وماما ولازم تتفوق من أجل أن يفرح بشيء، بابا حزين جداً لأنه في خلاف مع الحزب، ويرفض بشدة تحالف الحزب مع التيار الديني ويقول إن الانفتاح والسلفية سيفسدان الوعي الليبيرالي ، خالو نصحه بأن يبتعد عن السياسة لأنه طبيب ناجح والأحزاب لها تحالفات لمصالحها حتى ضد مبادئها لكنه يصر أنه لامعنى للنجاح في مجتمع غير ديمقراطي. بابا أصبح مديراً للمستشفى..قالوا لي ذلك في المدرسة، لكنه ليس سعيداً ويقرأ هذه الأيام كثيراً ويدخن وماما تنصحه بالابتعاد عن التدخين لأنه يفسد صحته.."

"نادر كيف حالك وما أخبارك ، أنا بخير وآخر شقاوة لازلت أكتب شعراً ومدرس الفرنساوي معجب أيضاً بشعري، وهذه آخر أبيات كتبتها أهديها إليك:

(حورس مابك صامت

انهض ،تكلم، اصرخ

أترضى أن يهان ترابي

وتباع أرض الآباء والأجداد

وأمام القتلة تستباح أعراضي "

"للأسف يانادر أحوال بابا تسوء هذه الأيام ، لذلك هو يعتذر لك عن موعده الخميس القادم.. ماما خائفة عليه جداً خاصة بعد أن أرسل له الحزب قرار فصله. ورغم أن بابا قال "للباشا" في التليفون" بيتي وبيت أبي وجدي استقبل سعد زغلول والنحاس باشا وكان له شرف المحافظة على المبادئ الحزبية الأصيلة" ، فإنه لم يقتنع برد الباشا بأن الضرورات تبيح المحظورات وأن التحالف وقتي ، وأصرَّ بابا على ترشيح نفسه في الأنتخابات كوفدي مستقل ومعارض للتحالف وقال لخالو المبادئ لا تعرف هذه الضرورات. لا أفهم كثيراً يانادر ، فقط أدرك أن بابا يواجه وحده أشياء كثيرة، ويبدو مضطرباً ولا ينام ، يغلق عليه باب حجرته ويفرك أصابعه ولا يكف عن التدخين.. المهم أنت كيف حالك ، أنا بخير ، وأذاكر رغم هذه الظروف بجدية ، أحضرت أوتجراف ينتظرك أن تكتب لي في إحدى صفحاته، كتب بابا لي في أول صفحة:

"صاحبي من الناس كباراً

وجانبي الجهَّال أهل الفضول

واشربي نقيع السم من عاقل

واسكبي على الأرض دواء الجهول"

وكتب لي مُدرس الفرنساوي:

" أنت ملاك ، كيف تسكنين الأرض وتتكئين على خشب الطاولات الحقير"

وكتبت لي هند:

" إذا مالت الشمس نحو المغيب وتباعدت القلوب عن القلوب فهل يكون في الذكرى مغيب"

*

(٢)

اثنتان بالمبنى الرابع
بمدينة الطالبات

عند بائع اللعب عروسة، تدور حول نفسها، عند بائع اللعب، وقفت، اشتريت أرنبة وكلباً، وقبل أن أمضـي بعيداً، سألت امرأة عابرة، هل أشترى له عروسة؟ مضت مسرعة ولم تجب، وضعت الكلب فوق المكتب، والأرنبة في حضني، وكتبت على الحائط اسماً جديداً لابنتى التى أنتقي لها الأسماء، في الصباح، ستضحك البنات كثيراً إذ رأينني بجديلتين وبيجامة بها ورد، وفي حضنـي أرنبة وعلى الحوائط خدوش، وقلوب، وفي بطني تجويف فارغ يسمونه "رحمًا".

*

البناية العالية لم تدفع أياً منهما لإلقاء نفسها، رغبتا في ذلك ولم تفعلا، عجزت الأولى لأنهم علموها فقط التطلع عبر الأراجيح تنزل وتهبط، ولا تطير أو تسقط. كان اسمها كما تعرفون الباذنجانة، اختصرته أخيراً إلى "نون"، أما الثانية فأجلت تلك النهاية قليلا ريثما تضفر شعرها الأجعد ضفائر صغيرة متراصة. وتغني لحبيبها "روحي وروحك حبايب من قبل ده العالم والله" كان اسمها "ص".

كان هناك بنفس البناية أخريات، يركضن بين الغرف الضيقة.. بلونها الأصفر الباهت، والأسرة المزدوجة في طوابق تتسع لأحلامهن.

بإمكانهن أن يضحكن، أو يبكين، أو يحصين عدد الحشرات المطهوة مع الوجبات، وأن يتحصن من القيئ بأكواب الشاي والأرغفة الجافة، بإمكانهن أن يسمعن شجار العاملات البدينات في الطرقات كل صباح، وبين السباب اليومي كان الماء ورائحة المطهر يدخلان من تحت الأبواب، ودخان القمامة المحترقة تحت النوافذ يتسلل من الفتحات، وأجراس الوجبة الصباحية تدق، والمشرفات يتفقدن نظافة الحمامات بأصوات حادة مختلطة، وأربع بنات يتقاسمن أكواب الشاي، ويبتسمن لأربع سنوات طويلة، قادمة في الغرفة رقم (٨١) البلوك الرابع مدينة الطالبات، وحين يخرجن سيمررن على المخازن والكافيتريا وغرفة التليفون والزيارة والإدارة والأمن ويقابلن ثلاثة أبواب رئيسية .. يمرق منها الجميع، ساعتها سيكون النيل ليس بعيداً، والجامعة أقرب، والطوار الذي تمشي عليه الأخريات يسع خطواتهن.

*

.. لم تعرف "ن" وهي جالسة على أوراقها وفي يدها قلم أنها حين وضعت سنه في أول الطريق بدأت به المتاهة "مئة عام بحثاً عن مخرج"، كان الفتى اسمه زياد، والبنت لا اسم لها، ربما كان اسمها "نون" نصف دائرة محدبة .. أشبه بوعاء تسقط فيه نقطة، مرق أول رجل في حياتها يلهث بين الأروقة ويستبدل مجلة حائط بأخرى ويدقدق مع الطلبة على

البنش، ويردد مقاطع من اغاني يصعب حفظها، تتحدث دائماً عن سجون وحمائم ونسائم وبشائر والغلابة الشقيانين، تحاول كل يوم أن تتغلب على مخاوفها، ستفتح عينيها بثقة .. ستمدِ يدها لتمسك بيدِه، ولن تخاف، سترفع وجهها ليرى كم هو جميل، وبلا خجل ستحكي له عن أبيها، كان مناضلاً ويتحدث مِثلَه عن الفساد والإحباط .. وستقول له إنه مات، بالجلطة، ربما يربت على كتفها مثلاً، حينئذ ستحكي له عن خدوش وجهها وهي تعرف أن عينيها تبرقان بحزن كل انكساراتها. ربما يرفع وجهها بين يديه ويقول لها وهما يركضان على الطوار "أنا أحبك".

لكنه كان يتحرك بسرعة، يروح ويجئ ولم يمهلها وقتاً. كي تقول شيئاً، فقط تذكّر بعد أعوام طويلة.. أنها كانت موجودة دائماً، فقال لها: أنت نقية جداً، وأن هذا شيء بالغ الندرة وفي المجمل هي بنت محترمة .. أربعة أعوام لم يشعر بها أحد، تتبش في دواخلها، "مهذبة ورقيقة"، تمارس قمع أحلامها بانتظام، وتعوّد عينيها تلك الانحناءات التي تواجه بها الحياة، وديعة كما تمنوا لها، وتحادث نفسها بانتظام عن أخطائها، ونسيت كيف يكون الكلام من طول صمتها، ولا ترى بين المدرجات سوى سهم طولي يشير إلى المسجد، تبكي وتضم شعرها في ضفيرة، تطيل غطاء رأسها كل يوم كي لا يرى منها أي تفاصيل، حين تقطع صخب المحاضرات بوحدتها ستتبع السهم وتجلس إليّ جوار الحائط. المسجد عبارة عن ركن بين حائطين، عن يمينه بوفيه، تتصاعد منه رائحة القهوة، وإلى يساره ممر ضيق يفضي إليّ دورة مياه للطالبات، ولوح خشبي يكوّن ركناً ثالثا، وستارة تغطي مدخل الطرقة ومدخله، لا أحد هنا غيرها، وطالبة في نقاب أسود تلمحها دائماً تصلي الضحى وبعد عدة نوافل أخرى تجلس لقراءة القرآن بصوت خفيض، قد تحدثها بعد أن تنتهي من صلاتها عن عذاب القبر أو علامات يوم القيامة أو تعطيها كتاباً

عن التبرج وأذكار الصباح والمساء، فتطيل ثوبها أكثر، وترتدي قفازاً، متعففة عن السلام والكلام.

ورغم كل ذلك تواصلت المنامات كان "تادر" يلطمها والدم ينزف من فمها، وتتفتح كل الخياطات التي واراها الزمن، وجاء رجال كثيرون كان فيهم مدرس الفرنساوي، وناظرة المدرسة التي صار لها شارب عريض، يأتونها ويجذبونها من شعرها ويركلونها بالحجارة وهي تركض وتصرخ فلا يستيقظ أحد، لأن سماع الصرخات لم يعد يرعبهن، كأن المبنى المكتظ بانفاس متراصة صار لا يهتم فيه أحد بذلك الصراخ، يركضون باتجاه جرس الإنذار كل ليلة، مغص كلوي، كابوس، معركة بالأحذية، سباب، وهيستريا جماعية للصراخ بعد نوبات من الضحك والرقص في عنابر فسيحة أو ضيقة.

لكن الرجال الذين استوطنوا أحلامها لم يعودوا يركضون وراءها فقط، صاروا يلقون بها فتهوى ثم تسقط حركة ارتطام جسدها بالأرض، في البداية كانت توقظ النائمات، فتستجيب لحركة أيديهن لرفعها عن الأرض، وحتى بعد أن استبدلت الفراش الأعلى بالأسفل، وبعد أن قرأت كل التعاويذ، كانت تستيقظ فتجد نفسها على الأرض وتشعر برضوخ جسدها وأنفاس ثلاثة وجوه على الأسرة هادئات، فتعلمت أن تلملم مناماتها دون أن تحكيها، لأنها كانت متكررة وقيلت كل التفاسير الممكنة حولها من أول عقد الذنب والاضطهاد حتى الرغبة في الانتحار كإيذاء للجسد لمعاقبة الأب الهاجر المذنب الذي تركها تهوى وبقى هائماً في فضاء بعيد.

❃

"تعالى"

قال اخلعي ملابسك، كنت لا أزال أخجل من الزغب الذي علا ساقي وتنامى بين مفرقهما، نفضت التراب من على الفراش، وفردت الغطاء، وتفحصت طبقات الاتساخات والعناكب فوقه، وضعت الوسادة الوحيدة التي لها لون خليط من لبن وريق وبول ومخلفات شديدة القتامة أسفل ظهري، الغرفة أضيق من "غرفة الأربعة" في مبنى مدينة الطالبات، الفرق الوحيد أن لهذه رائحة طحلب وعفن ورطوبة .. ومكدسة بأوراق وبلا أي أثاث، وخلف بابها تقبع أمه في الردهة ..

قال: اخلعي ملابسك، وكان يخلع سرواله بسرعة، ورائحة فمه مليئة بالكحول، وضرسه المتورم له طعم الصديد، مد لسانه عميقاً في فمي وجذبني تحته، لوث دمي عدة أوراق على الأرض، خرج عارياً ليبول، وعاد وفي يده سروال قديم لأمه، قال: نظفي نفسك.

"تعالي يا صفاء" .. "تعالي" امض وراءه

كل ليلة تقودني خطواته، نتعثر في الأعمدة، يركل كل شيء في طريقه بحذاء به أكثر من ثقب، نمشي في الحارات الضيقة، لنصل.

البيت المجاور خرابة ما، أحجار ومخلفات وجرذان تطارد قططاً تموء في الليل، ويتعالى صياحها، والبيت المواجه خرابة أخرى، وكائنات دقيقة تسرح فوق جسد ميت، والنساء يجلسن، بدينات، يفتحن أفخاذهن ويكببن في وجهي، ورذاذ ماء يتناثر من فوق، وصوت ضحكات غامزة. أمضي محتمية بذراعك، إلغرفة العارية .. والأرض والأوراق ومطفأة الدخان والزجاجات الفارغة، تفتح حقيبتي وتندفع لملئها.

"تعالي"

هذا الحلزون يخيفني، معتم ومترب، وفي كل سلمة عطب، وهو يركض بي كل ليلة، يطرق الباب، بعنف تسبقه رائحته، تفتح، زاحفة على الأرض، ساقاها متورمتان، يسحبني على باب الغرفة المواجه وهي تنظر لي باستفزاز، فأرمق الأرض المتربة وأتابع صرصور يختبئ في طرف ثوبها.

التراب يحف بكل التفاصيل: أبحث عن مكان يقصيني عن عينيها، أشعر بالضآلة والخزي، تنظر لي بتحفز، "يمكنني أن أعود" .. "أعرف الشارع .. سوف أعرفه" .. " لا . لا تأتي معي، أنا سأمضي وحدي"، تعطي لي ظهرها وتزحف حتى فراشها ولا تتكلم، يدخلني ويغلق الباب، يركل الصناديق الورقية بقدميه، يفتح ويغلق، يخرج علبة ألوان وأكثر من فرشاة يبدو عليها التيبس، أفترش الورق الذي جف عليه دمي والغطاء المتسخ، وأضم ساقي ولا أنتحب، بهدوء أتعرى وهو يقول: "اخلعي ملابسك"، "يمكن أن تشربي بعض البراندي"، أبحث عن مطفأة الأعقاب، أشرب لأحكي له إذا تطوحت من الإعياء عن أمي وأبي وبنات أخريات في المبنى الرابع بمدينة الطالبات، أقول له: ..

- " أبي كان صانعاً للطرابيش .. ربما كان موسراً في يوم من الأيام، .. كانت له زوجات متتاليات، آخرهن أمي، صورته على الجدار كانت ببدلة وياقة بيضاء منشاة، وطربوش أحمر كان عجوزاً دائماً.."

- " ماذا كان يعمل أبوك ؟!"

_ "لطخ"

يضحك، تعجبه الكلمة أكثر فأضحك معه، ننظر له في بروازه المعلق في حجرتها رجل أسمر، يرتدي سترة عسكرية برتبة مجند،

ملامحه غائمة لزمن قديم.

تقول أمه لي إنها لو ماتت فسيتركها تتعفن، أنفض صرصورًا جديدًا من على طرف ثوبها وأبدد بعض عتمة فراشها وأحاول أن أغير لها ملابسها لكنه لا يمهلني، يسحبني من يدي ويقول لها "لن تموتي .. سأموت قبلك"، يدفعني أمامه ويغلق الباب خلفنا بحدة،

- هل تكرهها ؟!

- لو لم تكن عاجزة لوقفت على ناصية أي شارع تستدرج رجلاً ينام معها

- أنت قاسٍ

شرب ما تبقى في الزجاجة وقال:

- لا أحتاج رأيك، أنت عاهرة مثلها.

ركلت الورق والتراب، اللوح المفترض أن تكون عليه صورتي، خرجت، وكانت الأوراق التي سال عليها دمي تحته ولم يقل التظري، قال: في داهية.

ركضت في الشوارع .. كان منتصف الليل، باب المدينة الجامعية مغلق، والمبنى الرابع نائم، والنيل أمام سميراميس يفرغ عربات وضجة ونساء يفتحن صدورهن ويمضغن انتظار المارة، ضئيلة، وسمراء، ببنطال جينز وبلا كحل ولا مساحيق، من يغامر في اغتصابي، المجند الذي اقتسم شايه معي على الرصيف المقابل تطوع بلمسات متفرقة لجسدي، دخنت مزيداً من السجائر، وسعلت ودفوف زفاف أسطوري على بعد خطوات وأكثر من عقال يلتقط فتيات صغيرات يتطوعن

بالإشارة لهن، والفجر الضبابي ملئ بفضلات العطور والدخان والأطعمة التالفة، وثمة لزوجة تترك رغم الشتاء أثرها على الجلود.

*

"منطلقة"

قالها وابتسم، "منطلقة" وكان يلوك الكلمة في فمه باستمتاع، وعيناه تلمعان بمحبة، وثلاث بنات يجلسن على طوار النهر ويراقبن المراكب الصغيرة والمارة والمقاعد المشغولة بالعشاق. مر النهار، فافترقن وجاء يوم جديد في المدرج.

كانت البنت المحشوة في بنطال ضيق وفي يدها سيجارة تنظر لي باستفزاز، هل تكرهني؟! هل تعرف أني أحبه؟! صوتها مبحوح قليلاً، وجسدها ضئيل، وشعرها مشعس تضمه في ضفائر صغيرة، صوتها يجلجل في الممر واسمها تتداوله ألسنة كثيرة، اسمها "صفاء" تقف دائماً بمواجهة روحي بتحد وتقطن أعلى فراشي ولا تسقط مثلي في المنامات. يصافحها بعينيه ويقول "منطلقة" .. بمحبة تفزعني، أقارن بين تفاصيل جسدها وجسدي، أخبئ حيرتي وهي تتفحص الرجال بندية، قالت "ليحيا" الفلاح الأسمر الذي لا يغير قميصه ناصع البياض، ولا يخلع نظارته، "شعرك رومانسي، ألا ترى في الحياة أفقًا أوسع من التغزل في المحبوبة ..؟!" أحس يحيا بالحرج، خلع نظارته فظهر جحوظ حدقتيه، مسحها بكم قميصه ثم أعادها، وحينما أعطاها ظهره ابتسمت لارتباكه، لماذا يتحولون إلى مساكين ومراهقين بجوار جرأتها؟!

تقف عيناه حول نظراتها المقتحمة .. بجرأة ويقول منطلقة،..
فاستند على ذراع "منى" وادعى أني أسندها، وفي غرفة المكفوفين أمسح دمعتي، لكن "منى" كانت ترى الدموع في حلقي وأنا أقرأ بصوت عال، وأدعي التماسك أمام سمعها المرهف.

يدي في يد "عليا" آخر اليوم، يمر "نادر" مرتبكاً، يقول أشياء عن أحوالي ومذكراتي، ونقودي، ولا تخجل "عليا" أن تسأله بجدية عن أخباره، وتجبره أن ينظر لها وهو يتحدث عن الفارماكولوجي والتشريح، وتهديه أوراقاً اعرف أنه لن يقرأها، وهي تتابع ذكرياتي عنه كأوراد يومية، تهديه تسجيلاً جديداً يغني لأجمل الأمهات التي انتظرت طفلها وعاد مستشهداً فبكت دمعتين ووردة، ولم يهدها شيئاً، سيبتسم وترتعش يده ولن يصافحها، وحين يفارقنا سنتسند معا على الطوار ونواصل المشي إلى المبنى الرابع بمدينة الطالبات.

كان فراشها لايزال خاوياً فوقي

قلت لعليا هل يحبها؟! لم تعلق خلعت ملابسها ببطء ودست جسدها في الفراش المقابل.

أكملت:

منطلقة .. يقول منطلقة وكانت عيناه تمسّدان شعرها بحنان .. هل يحبها؟!

صرخت "عليا"

- هل الإحباط غاية لديك؟! هل نختار الطرق المغلقة كي نقف أمامها عاجزين .. هذا كفوف كفوف.

كان صوتها جارحاً وخرج صوتي حاداً.

- وهل أنت أيضاً مكفوفة، لماذا تصرين على نادر وأنت تعرفين أنه متردد باتجاهك؟!

- هناك فرق كبير

- نحن نصطنع المبررات الكافية حين نريد

- أخوك اكتئابي، إنه يسير باتجاهي خطوة .. قد يتردد لكنه يسير

- وبعكس اتجاهك أيضاً ..

كانت "مها" تصف ناعسة عندما احتوانا بعدها الصمت الثقيل فقامت لتبدده، أدارت قميصاً جديداً على جسدها وتمايلت، قالت "عليا": جميل "يا مها" يستحق تعبك، وابتسمت لها في استحسان فأسرعت بارتدائه أمام المرآه، ثم استدارت لنا مخبئة فتحة صدرها بكف يدها، الجرح شكله غبي، ضحكت "عليا" .. هذا وهمك الخاص، ترددت العبارة في أذني .. "وهمك الخاص" ثم أطرقت وأنا أراه في اليوم التالي معلق للبيع في المشغل.

في المدرج كانت البنت التي تقطن فوق فراشي تتجاهل وجودي باستفزاز، أجلس تلك المرة بجوارها، أقضم أصابعي وأقول لها إن انتظار المحاضرة ممل، لا تعلق .. أكمل مادة المناهج لا تحتاج لمن يشرحها .. لا ترد، أكرر .. هل لخصت منها شيئاً؟

تنظر لي ببرود، هل تعرف أني أحبه مثلها؟!، هل تكره وجودي؟!، أتركها حين يلتفون حولها ويقتسمون السجائر وتتخبط أيديهم بين القفشات، ويتبادلون الدق والأغنيات التي لا أحفظها، يتحدثون عن الثورة وعمال

كفر الدوار وانتفاضة الجياع، ويتبادلون نكات جديدة عن الكافيار وفراخ الجمعية،

اشارك "مها" أذكار الصباح حتى يدخل المحاضر بسترته الأنيقة. ورابطة عنقه الملونة بصخب، يخلع نظارته ويبتسم "صباح الخير"، يستفيض في تقسيم الأدوار في المجتمع، ويستطرد في التمايز النوعي، ويدخل إلى الفروق الطبقية وَيُعَرِّفُ معنى العدالة .. تصفق بشدة له، ثم تتبع خطواته باتجاه المكتب، ويراها الجميع وهي تجلس بمواجهته وتتناول سيجارة وهو يشعل لها واحدة، تبتسم بغموض والدخان يتلوى في الفضاء.

تفترش "عليا" أرض الممر بين الفراشين وهي بمواجهتها تسند ظهرها للفراش المقابل وأعطي ظهري للفراغ

- أفَّاق يدَّعي كل الأشياء التي لا يعرف معناها.

تقول "عليا" فتعترض بشدة

- الجهل والتخلف هما اللذان يصادران كل الآراء من منطلق التعالي عليها

- بدليل ماذا تعبرينه تقدمياً يا "صفاء" بدليل السيجارة التي أشعلها لك

- كل الذي ضايقك مجرد دخان؟! حتى أنت يا "عليا" ضيقة بهذا الحد؟!

- كل الأفاقين يتحدثون عن العدالة .. والحرية .. ويجدون في ذلك مدعاة لإنكار القيم

- تخلف، تخلف، مجرد مظاهر، القيم الحقيقية التي نحتاجها هي

العدالة والحرية .. وليس مجرد طقوس سلفية متخلفة.

قلت "لعليا": إنها لا تفكر فيه وهو يحبها. مشغولة بأستاذها التقدمي، لا تستحق ظفره، قلتها بأسى فامتزج الإشفاق بالازدراء في عينيها، وكان صوت "مها" من فوق الفراش يدندن بأغنية حزينة.

*

البنت التي تشاركني فراشي تضفر شعرها كقروية .. خارجة من طست حمومها، وترتدي ملابس عصر النهضة، غالبا هي ملابس أمها التي تكتب لها الخطابات، تطيل كل يوم غطاء رأسها وتفتح فمها بتقعر أزهري يرتدي طربوشاً .. كانت تذكرني بأبي وهو يتحدث عن النعمة التي يصونها الرب من الزوال، ملطخا وجهي بأصابعه التي لاتزال فيها قوة لأن تعلمني الأدب والاحتشام والكف عن التطلعات المريبة لارتداء فستان يزغلل عين جارنا الذي يصفر لي في أوقات فراغه، ويرسل لي قبلاً في الهواء.

كان جارنا أول رجل حدثني عن ماركس والبورجوازية العفنة والنظام البطريركي وحرية الجسد، حين تطوع ليعطيني درساً في الفلسفة وعلم النفس في إحدى السنوات الدراسية، ثم مد يده من تحت الطاولة فأمسكت الشياطين في جسدي، كنت ساعتها لا أزال أخاف من الرب الذي يرانا، لكنني كفرت بأن الصبر مفتاح الفرج، أن أحب عباده إليه الفقراء، ومن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط، تحاول البنت التي تستلقي أسفل فراشي أن تضيف إلى معارف أبي مقاطع

اضافية "قل لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لأنزلنا عليهم بركات من السماء" تعلقها على باب الغرفة .. وتحشو أحاديثها بحكاية سويسرا البلد المترف التي يكثر فيها الانتحار. والأمراض والأوبئة التي ترافق البلدان الغنية وأرهقتني بتبتلاتها المسائية في تفريج الكروب لذلك كانت أول من دفعت إليها بعضنا من المسقعة .. وأنا أراه تماماً وأرفعه بمواجهة عينيها، فأر صغير مقلي ومتبل مع خرطات الباذنجان المطبوخ في قدر يكفي ألف فم في معسكر الاعتقال هذا، قلت لها:

كلي .. الفئران ليست نجسة وحلال أكثر من دجاج أمريكا الفطسان دون تحليل دمه بالشهادتين .. كلي ..

.. ضمت أنفاسها في كفها وكنت أعرف أنها ستتقيأ

تحرزت "عليا" على الواقعة وأرفقت الشكوى بعشرات الإمضاءات، بصقت المديرة في منديلها لدى رؤيته، ثم بلعت ريقها لتقول: احمدوا ربكم إن أكلكم مجاني .. النّاس لا تَجد في بيوتها رائحة الزيت ولا السكر ولا حتى لقمة الخبز .. وأنتم تتبترون على النعمة.

نغمس الخبز في الشاي القاتم ونطعم جوعنا حتى يأتي النسيان، بعد أن دشنت مقالات طويلة عن العدالة والثورة وتوزيع الأرزاق وماركس وعلى ابن أبي طالب. دونت كل اللافتات اللازمة لمجلة حائط مجيدة ثم نمت مرتاحة الضمير.

❋

صوتها يجلجل في الممر

ـ لن أسمح لك بأي اتهام حقير

ـ ممكن أفهم أين بت تلك الليلة؟!

ـ عند أقاربي، أصدقائي .. هذا ليس شأنك.

ـ بل هو عملي، وأنت ليس لك أقارب

ـ عملك متابعة احترامي لحقوق الآخرين وليس التلصص على أخباري

ـ حسن السير والسلوك.

ـ سلوكي أشرف من أية شبهة، وحتى لو كان غير ذلك فهذا ليس شأنك، لدي ضمير وعقل

ـ الانحلال هذا لا ينفعني.

علا الصوتان أكثر فلهثت باتجاههما، "معلش يا أبله معلش" تسحب البنت ذات الضفائر يدي وتلقيها بعيداً عن كتفها وتصرخ فيَّ "أنا لم أخطئ كي تعتذري بالنيابة عني"، كررت "عليا" نفس عبارتي للمشرفة.. وسحبتها بدلا مني إلى غرفتنا.

لم تكن تبكي، قالت .. قوادة باسم الفضيلة تمارس قمع من تريد ودخنت أكثر وألقت الأعقاب بجانب فراشنا ثم خلعت ملابسها دون أن تطالبنا بإغماض عيوننا، وضفرت شعرها المبلول ضفائر صغيرة وركلت أعقاباً جديدة ثم خرجت. قلت "لعليا" هل كانت معه؟ لم تجب، وكانت "مها" تقول "خالد" مر عليَّ أمس، قال إنه سيكلم أمي، رجوته ألا يفعل .. أنا لا

أصلح لشيء.

تحسسنا في صوتها الدموع وكان صدى كلماتها يروح ويجئ وعليا تتحدث عن الحب الذي لم يعد أحد يجده وصحتها والفل والموت، ثـم سـاد بيننا صمت طويل.

*

بار الشيخ علي ليس حقـيراً للغايـة، غير أن رواده مثلـي ومثلـه، يهتفون ضد ارتفاع الأسعار والبطالة في مظـاهرات تنتهـي بعربـات أمـن مركزي ومجندين يطاردوننا بعصى كهربائية .. وقنـابل مسـيلة للدمـوع، ويعلقون لافتات كبيرة على أفواههم عن العدالـة والثوريـة .. والعمالـة لأمريكا، ويقاطعون الكنتـاكي والهـامبورجر والفراخ المجمدة، ويلتفون فـي جلسـات عبثيـة تتحدث عن مـاركس وتروتسـكي والإحبـاط، كلُّهـم يكتبون قصائد متشابهة، حتى أوراقي لـم تخل مـن مثل هـذه الشـعارات وأنا أتحدث عن الالتزام الأيديولوجي وأدبيات النص الثوري.

في بار الشيخ علي يقرأ دائماً أشعاره بعد أن ينهك كل طاقتـه فـي نسـجها، فيقولـون لـه .. "محـاولات"، ويحدثونـه عن عبقريـة المثـابرة، نشـوته الوحيـدة يستمدها حين يحملونـه علـى ظهورهـم فـيرتجل كـل الشعارات اللازمة لإشعال مظاهرة.

- مش كفاية لبسنا الخيش، جايين ياخدوا رغيف العيش

- يشربوا ويسكي وياكلوا فراخ، والشعب من الجوع أهو داخ

ـ يا أمريكا لمي فلوسك، بكره الشعب العربي يدوسك

العرق على جبهته يتوهج، وبعد الركض وقذف الأحجار، نتوارى مكدودين نعد أسماء الذين تم اعتقالهم وأسماء المختبئين، فأراه يكبر يصبح رجلاً بحجم أحلامي.

في بار الشيخ علي امرأة تغني على عود أغنية واحدة "روحي وروحك حبايب من قبل ده العالم والله" حين لا يكون ثملاً يفتح حقيبتي ويشتري لي عقداً من الفل، ويقبلني فيضحك اصدقاؤه ويصفقون ويزغردون ويظل يشرب حتى يقول لي من جديد..

"تعالي"

لابد أن نكمل اللوحة

نمشي في الشوارع المعتمة، قد يكون ثملاً لدرجة أن يفتح بنطاله ويبول وهو ممسك بذراعي على عربة أمن مركزي مرابطة أمام الجامعة الأمريكية .. يكثر من التبول أمام قسم شرطة باب الشعرية، لأن الضابط النباتشي مغرم بتفتيشه تفتيش ذاتي ودائماً يشتبه فيه، وبناديه بالشيوعي الكلب، والصول أيضاً مغرم بالتقاطه متطوحاً في الشوارع ليبيت ليالي كثيرة في التخشيبة.

أشرب الليلة .. أكثر، لنهذي معاً بعدها نريح الورق الذي تيبس عليه دمي لنتشارك الهلاوس، حين نفيق صباحاً، يشعر بالصداع، وأشعر بالقلق، عليَّ أن أواجه نفس السؤال عن المبيت خارج المبنى الرابع في مدينة الطالبات، وعليَّ أن أتسلح بمزيد من الصفاقة لأبصق على الأرض حين أراها فتخشى المشرفة التورط معي في المناقشة، وعلى أن أنسى الذي قاله، لأنه بمرور الوقت ومن تكراره لن أشعر

بالفجيعة .. كان أبوه مجنداً في حروب كثيرة، مات ومازالت لأمه سيقان جميلة، كان يقرأ تروتسكي في الحمام الذي هو عبارة عن قاعدة أرضية للتبرز، ومسمار خلف الباب، وشباك به ليفه وصابونه، وكوع ماء، وحوائط تختبئ فيها صراصير وأبراص، لأن البيت كان قديماً كما هو الآن بل ربما كان اسوأ، فقد استطاعت أمه أن تضيف بلاطا للأرض بدلاً من الأسمنت وماسورة للدش بدلاً من الحنفية، وسدت كثيراً من الشقوق، واشترت كرسيًا لتجلس عليه وهي تدعك كعبيها، كانت ساقاها جميلتين، وهذا يكفي لاجتذاب السباك الذي قام بالتعديلات، كما اجتذبت آخرين، كسائق الأتوبيس الذي التصقت به. كانت كل الأجساد متراصة، وثمة آخرون يتشعلقون في النوافذ، ورائحة العرق وسوائل أخرى كانت تفوح، والناس تتحدث عن السكر والزيت والخبز، وحدها كانت أمه تستطيع مواصلة الحديث مع من حولها، وثمة رجل هو في الوقت نفسه سائق الباص تعطي له ردفين ثقيلين بمحاذاة يده التي كانت تتحسسها من الخلف، وآخر بمواجهتها، ملتصق بفخذيها، لأنه متورط في الأجساد التي تدفعه باتجاه أسفل بطنها، بينما كان صدرها مشاعاً لمن يتسنى له الاقتراب. كان واقفاً بجوارها ولم تره، قرصها السائق في فخذها قبل أن تنزل فلم تكمل ضحكتها لأنها اصطدمت بكوعها في رأس ابنها الوحيد، مشيا إلى البيت صامتين، لكنها في أول مشادة بينهما، قذفت بصندوق تروتسكي وكفافيس وڤان جوخ على السلم الحلزوني "ياالله يا ابن الكلب على بره"، صارت مشادتهما أقل بعدما اعتاد البيات في أماكن كثيرة متفرقة، فرن الخبز الذي عمل به، زملاء دراسته، الرصيف، القهوة، بار الشيخ علي، تورمت قدماها، صارت الساق مثل جزع خشب، مازالت تصر على صرف معاش أبيه بختمها، تعد النقود القليلة وتقول إنه يسرقها، رغم أن المعاش لا يكفي ثمن الخبز، تبكي وقد تخرج لي من وسط كراكيبها كسرة وتقول "فينو" إذا كانت راضية عني، بعدها تسألني

أسئلة ماجنة، كنت لا أزال أخجل من الإجابة عنهـا، لكنها كـانت تتحدث عن خيبته وندامته باستفاضة وتقول إنـه طـالع لأبيـه .. خـائب، وتومـئ بإيحاءات جنسية واضحة، وتحكي أنها كـانت تدفـع عنـه الأطفـال الذيـن يمتطونـه ويتحرشـون بـه فـي الخرابـة المجـاورة، وتعتـبره سـبباً لكـل أمراضها، هو أيضاً لا يخفي عنها ذكريات عهرها في طفولتـه، يتبـادلان الاتهامات حول كونها عاهرة .. وكونه ليس رجلاً وتنتهي المعركـة بـأن يقذف مزيداً من زجاجات البراندي الفارغة لتتحطم علـى الأرض وهـو يعرف أنها تزحف مخلفة جروحاً كثيرة على ساقيها.

*

كـان يعـرف كيـف يتكلـم كثـيراً ويضحـك كثـيراً ويشـاغب كـل المحاضرين ثم يخرج من قاعة المحاضرات مطروداً ليجلس علـى المقعد الحجري ليؤكد بلهجـة أكثر عبثـاً أن كـل الأشـياء تافهـة، ومحبطـة ولا إنسانية.

.. كل المهاترات أساسها طبقـي، ينظـر لغطـاء رأسـي ويكمـل هـذا الرب يحكمنا من موقع فوقي .. هم الذين اخترعوه لتظل أعناقنا متوهجـة إلى الأعلى، مسحوقة بتعاليمه، .. هم الذين اخترعوه ليؤكد هذه الدرجات.

كان كلامه مستفزاً ومع ذلك لم أنكـره، ولـم أجـرؤ أن أقـول لـه إن العلمانيين والشيوعيين يتكالبون على الإسـلام بهـذا الغـزو الفكـري لعقـول الشبـاب، وإن الإسـلام أضحـى غريبـاً كمـا بـدأ، وإن إقامـة دولـة الإسـلام فريضـة وضـرورة، وإن جند الله عليهـم بإحيـاء الجهـاد المقدس فـالتكوين

الدقيق والالتزام العميق والعمل الدائب هو السبيل الوحيد، لأن كل هذه المقولات كانت معلقة على لافتات واضحة في أروقة الجامعة، ومعارض الكتب الإسلامية التي تخترق أناشيدها قاعات المحاضرات ..

ارتبكتَ وقضمت شفتي لأني لم أكن أسعى لأي شجار معه، كنت أريد أن أقول له أشياء أخرى تجعله يحبني، أن أحكي مثلاً عن جبني، وأني ربما أخجل من جسدي، ربما لم أكن أعرف كيف أكون بنتاً مثل كل البنات، لأني كنت دائماً كتلة لحم معجون بها ملامح، وقد أبكي فيقول لي أنت أجمل ممَّا تعتقدين، لكني لم أفعل في النهاية أي شيء، وقفت مرتجفة و"عليا" تخرج من حيادها إلى الانفعال ".. هل هذه السفسطة هي التقدمية من وجهة نظرك؟ كان هناك نص فوقي، وكان النص يحتَاج إلى تفسير والتفسير اجتهاد والاجتهاد محكوم بعموم الآيات لا بتفاصيل أسباب النزول، وكان هناك دائماً خلاف المسألة .. اننا نحتاج اجتهاد يفهم روح النص ولا يخدم تطلعات أحد ولا مزايداته".

ربما تمنت أن يسمعها "نادر" ليختلفا حول معنى الحاكمية لله، وكيف يصبح كل منًا مقصلة للآخر بأسم سلطة النص، لكنه لم يسمعها، كان دائما يفرك يديه ويمص مسرعاً ويقول لها إنه مشغول بمشروع الإغاثة، وجمع التبرعات للمجاهدين الأفغان عن طريق النقابة .. وإتحاد الطلاب، تجفف "عليا" توترها بتنكيس فناجين القهوة، والغناء لولد جميل تخلقه أحزانها، دائماً في فنجانها فضاء، وفي فنجاني طريق طويل في آخره طائر أسود يحلق، وفي فنجان البنت ذات الضفائر بومتان، كلما قلبت فناجينها أكثر بانت ملامحهما المزعجة وواصلت "مها" التحديق في كفة يدها وفي تراقب خط العمر. وكانت "عليا" تشرح سيكولوجية الأحلام في ترميز الواقع في ضوء خطوط الفنجان. تعبنا من التحديق في الفناجين فاطفأنا النور، وفي الظلام كان أصوات كثيرة تهمس وتتداخل.

.. نكوص يهرب مني .. الحب من غير أمل أسمى معاني الحياة .. تعبت من شق صدري مرة بعد مرة .. أنا لا أصلح لشيء .. يريد أن يسافر إلى أفغانستان يقول جاهلية ووجوب الجهاد.

في الصباح كان صوتها مع المشرفة يتعاركان.

- اسمعي لن أسمع لك بمثل هذه الاتهامات

- زملاؤك يتهمونك

- أنت تعرفين لماذا ؟

- أنا لا أعرف إلا تفتيش المحتويات

نثرت كل ملابسها أمام عينيها بامتعاض، تفضلي، فتشي، كانت قليلة ومهترئة، فردت ملابسها الداخلية .. أمامهن بتحد، بانت مزق كثيرة وهي تمسك بها عارضة أكثر من ثقب، "لست مترفة لدرجة سرقة زجاجة رومبا"، تركت الغرفة والدموع تملأ وسائدنا .. هل يعرف أنها تبكي؟ هل يحب دموعها؟ قلت "لعليا" إنها ضعيفة مثلنا، دفعت "عليا" وجهها في الوسادة فأطفأنا النور وأغلقنا النوافذ و"مها" تحتضن خيوطها وتدندن بأغنية حزينة..

"يا حبيبي أنا عصفورة الطرقات أهلي نطروني للبرد والساحات" ..

*

كلّما خرجت من المبنى الرابع مطرودة كنت أذهب إلى هناك لأجده، كل رواد الشيخ على مِثْلَه، يتحدثون عن فترات اعتقالهم بفخر، ويتابعون أخبار الأشباح التي تكتب عنهم التقارير، وينتظرون مداهمات منتصف الليل.

في بار الشيخ علي صممنا مجلات كثيرة للحوائط، واحدة لرسومات ناجي العلي، وأخرى عن مقاطعة السلع الأمريكية، ورابعة عن الصهيونية ونظمنا مظاهرات كانت عارمة من حرم الجامعة حتى مبنى السفارة الإسرائيلية .. نقوم بحرق العلم الإسرائيلي ورمي المبنى بالحصى .. ساعتها كانوا يتحدثون عن عبقريته في صياغة الهتافات وإرتجالها، هذا قبل أن تسوّر الجامعة بحصون الأمن المركزي وقبل أن يفوز الإسلاميون باتحاد الطلاب.

وقبل الصدام الأخير. بعده صار يلقب في الجامعة باسم الشيوعي بغرض شتيمته، وبعدها صار يطردني كثيراً في ليالٍ مظلمة فأقضي الليلة في الشارع مع مجند سمراميس الذي يسعل مثلي، صار بعد أن عرف طريقه إليَّ المناطق التي يرغبها في جسدي، يسمح لي بالرؤية من قرب لبقايا الكافيار والنبيذ والدينارات التي يلصقونها على أفخاذ الراقصات، فأحدثه عن الإحباطات والضياع، وقد أحكي له عن أبي صانع الطرابيش، وأمي التي تعد جهاز عرسي من شقاء غربتها، أضحك فيضحك معي على أشياء لا يفهمها.

بين المدرجات كانوا يرفعون لافتات تتحدث عن الجهاد والمجاهدين الأفغان، في الطرقة قال إنهم مرتزقة وحشاشين وعملاء للهمبورج الأمريكاني، وإنهم يتاجرون باسم الدين لهدم الثورة العمالية، على باب المدرج تناولوا جسده بين أيديهم واشتبكوا .. وكان ثمة

هتافات من الجانبيين "إسلامية إسلامية لا شرقية ولا غربية"

"عبد الناصر اصحى وشوف نهبوا الثورة وعلى المكشوف"

لا أمن مركزي ولا صفارات أو عصى كهربائية. فقط عربة إسعاف تُوأوئ معلنة حداداً قد يطول.

⁂

أنظر إلى وجهها بسمرته المتحفزة، تشاركه صخبه على الرصيف وتقتسم معه السيجارة على دكة حجرية، ويغنيان معاً أغنية لا أعرفها .. فأرشق أحجار هواجسي في الماء لتكبر وترسم مزيداً من الأسئلة .. لماذا يحبها ويتجاهلني؟!، أتعارك مع مدرس الفرنساوي في أحلامي، أطرد من حصته، أقول له إذا لم تكف عن مغازلة هند فسأخرج، أسقط في الصمت والعزلة ومعاقرة رسوم فنجاني بجوار "مها" التي تطرز قميصاً جديداً وتعده للبيع .. وتقول "عليا" اكتئابي يخاف التجربة ويرفض الحوار معي، لا يعطي فرصة لأي تواصل، علاقته بالمرأة مليئة بالإرباكات، "نادر" غير قادر على التواصل معي أو مع غيري قالت ذلك بأسف، فسألتها البنت ذات الضفائر.

– لماذا تتحدثين عنه باعتباره حالة إنه ليس مريضاً، وحتى لو كان، فهو ليس مريضك، إنه حبيبك.

فتساءلت بيني وبين نفسي كيف تعامله هي كحبيب، هل تخرج معه إلى أماكن أخرى .. هل تبيت معه؟! هل يحكي لها كيف أفحم المحاضر

حين سأله عن معنى الاجتهاد في ضوء سلطة النص الديني المطلق، وحاصره بمفهوم الاختلاف مادامت كل النصوص بينة واضحة؟! أم يتحدثان في بيت يضمهما سوياً، وينتقيان أسماء الأطفال؟! أعطت "عليا" لي وجهاً دامعاً وقالت:

أخوك غير متسق مع نفسه، قلت له أنا لا أريد منك شيئا، قال إنه يعد تقريراً عن الحركة الإسلامية في الربع قرن الأخير، كنا نسير معاً، أهداني أغنية، هل تعرفين ما هي؟! "أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي" قلت له أنت لا تحبني، أنا لست على خارطة أحلامك، مزقت كل الخطابات التي كتبتها له عن محبتي في النهر وكان يتحدث باستفاضة عن أن التغيير من داخل الجماعة غير ممكن على الإطلاق، لأن الهيكل التنظيمي للجماعة مبني على أساس السمع والطاعة يقول إنهم مجموعة من العجائز يهوون السلطة ويتنازعون عليها، بكيت أمامه لكنه استمر يتحدث عن الوعي العقلاني والنقد الذاتي والقيادة والجندية والإبداع والاتباع، قال إن الاستبداد ليس دولة فحسب بقدر ما هو عقلية ومنهاج، قال إن مجتمعاتنا تشبه جهازاً ضخماً لإنتاج الاستبداد وإن شر الاستبداد ما مورس بسم الإسلام، لأن الله خلق الأديان لترفع الأغلال عن الأعناق لا لتكريسها ..

أعتقد أنهم يضطهدونه أو يهمشونه .. أخوك مهتز للغاية، ويده ترتعش ولا يقدر على الإمساك بأي مشرط، وقال إنه سيبحث عن طبيب أعصاب.

بحثت عن طيف الملكة ناريمان إنها الآن في الحجرة المغلقة على أحزانها، أو ربما في التراس تحت الياسمينة تعد الأزهار للموتى، أو أمام النار المشتعلة في المدفأة، المدفأة لا تعمل .. إنها تحت فراشها تحلم بولد كان يدقدق على طبلة صغيرة ويركض فتركض وراءه.

بكت علياً على وسادتي قالت ربما يمارسون عليه ضغوطاً، قلت لها: كسر زجاجات البيرة من رف الثلاجة قال لأمي: لعن الله حاملها وبائعها وشاربها. وكان سعد باشا في الشرفة يتحدث مع أصحابه عن الليبرالية والديمقراطية وحكومة العسكر، كان يخبط أصابعه ويقول "مصر تعيش أحط الحقب على الإطلاق" قال ذلك ثم نظر إلى حطام الزجاجات ثم دخل غرفته ومات.

قال نادر: أنا سبب هذه الجلطة فبكت الملكة.

قالت "مها" صدري يؤلمني فأطفأنا النور وتنفسنا ببطء بانتظار النهار.

*

في بار الشيخ على جلس ليلقى قصيدة جديدة وكانوا يصفقون له لأول مرة

اثنين احنا اثنين

وأنا جزمتي ما تسعش غير رجلي

وساعات تضيق زي الشوارع، وزي آخر الشهر

وزي روحي لمّا بتقولي: نتجوز

اثنين احنا اثنين

وعارفك بتخونيني لمَّا باخلصلك

ولمَّا بتخلصيلي باخون

يمكن للحظة بس نتوحد

ساعة ما بنام ويَّا بعض

نفس السرير والرعشة والأنفاس

ولمَّا بننتهي ونقوم

كل واحد بيلبس جزمته•.(١)

صرنا نتحدث عن الآلام الرومانتيكية والاغتراب واليأس والإحباط، ووعي النخبة، والسلفية التي ابتلعت السخط الجماهيري صانع الثورة .. كنت احبه رغم كل شيء وأراه جميلاً بعينين لوزتين وأعشق فمه عندما كان يقبلني وهو متيقظ، أمَّا حين ننام ونتوحد كما كان يتحدث بفصاحة عن الرعشة والأنفاس، فلا أعتقد مِثلَه أننا نكون واحداً، يكون عادة ثملاً وجسده فوقي حمل من الهذيان، ويختبر ما تقوله أمه عن رجولته بجولات يحرص على أن تكون كثيرة لأنه لا يتعب، وبتوحش يصلح لمناضل وبفجاجة تصلح لثوري .. يكون لحظتها بعيداً جداً، يهذي باستفسارات عن مدى اقتناعي بأدائه ولا يستطيع أن يحدد إن كان بداخلي أو بخارجي، يصرخ مصراً أن يبكي كل مرة فأمد له صدراً أموميا لأقنعه أنه رجلي المبتغى. صرت أكره هذا الفاصل التمثيلي على جثتي، وأسأل "عليا" في المبنى الرابع بمدينة الطالبات عن عقدة أوديب

---

(١)• إبراهيم عبد الفتاح، شباك قديم

والفطام القسري والتخيلات المتعلقة بالجنس في الطفولة.

*

لم يعد هناك ما أطيل به ثوبي أو غطاء رأسي، لم يعد هناك حافة أصل إليها بعد أربع سنوات من الاختباء داخل ظلي، سوى أن يقول لي الولد النحيل الذي يخرج من المحاضرات مطروداً، الولد الذي تشاركت أنا ورفيقة فراشي محبته وكراهيته. واحدة تتأبط ذراعه على كل التاندات والمقاهي، وأخرى تراقبه من جحرها، فلم يعد هناك سوى كلمة عابرة يتذكرني بها "أنا معجب باحترامك لذاتك رغم اختلافنا" .. قديسة يا ندى، قديسة تدخلين الحياة وتخرجين منها طاهرة وبريئة صفر اليدين.

انت نقية جداً وطيبة يدثرك بها الآن ويرسل لها بكل الرسائل التي لن تصلك أبداً ..

قالت "عليا": أنت يا ندى تحتاجين محبة حقيقية، مشكلتك أنك لم تمري بتجارب تفتح أفقك على الحياة، اخرجي من صدفتك وسترينه بحجمه الحقيقي.

قالت ذلك وكنا نسمع صراخاً يأتي من مكان ما، لم تكونا بومتين في الحقيقة، كانت ثلاثا، تقول المشرفة: خالاتها وهي بين أيديهن تتطوح، والجميع يحاول فض الاشتباك لكنها أغلقت باب الحجرة عليها وقالت: أهلها ليس لنا دخل، وحين خلصناها من بين أيديهن كانت تنزف وتسأل

لماذا؟! ولا أحد يملك إجابة محددة، قذفوا بمحتويات دولابها في المزبلة قبل إلقاء قرار فصلها في وجهها، تركت أوراقه وخطاباته

".. أحبك يا طليقة يا شقية أحبك هل تكفي اشعار الدنيا لوصف حالي..."

أجمع عقود الياسمين والخطابات والتذكارات الصغيرة،

تقول "عليا": .. كفاك أوهاماً أنها تخصها، حتى لو كانت بحوزتك فقد كتبها لها .. إنه لا يحبك. لم يفكر يوماً بك، هل أنت ساذجة لهذه الدرجة .. هل كان سيحب شبحاً يتبادل معه النظرات من ألف فرسخ .. أنت مثل أخيك بالضبط هروبيان نكوص، نكوص .. نحن نغرق في الحاضر حيث يربكنا المستقبل أنت ونادر نسختان متشبهان كلاكما عاجز يدفن رأسه كي يرى ما يريد.

❋

تعالي

نحاول الاستمرار في رسم الصورة، أخلع ملابسي ليراني من زوايا المرآة أكثر غموضاً، نتبادل الدخان، يسرق من كراكيب أمه بعض الشاي والسكر، أسمع صوت عراكهما "يا صايع هأكلك وأأكل شراميطك".

لا يهذي بأية استفاضات عن أمه وأبيه، الليلة بامكاني أن أقول له أني طردت من المبنى الرابع، وأن امي التي لها خبرة برعاية العجائز

في بلد نفطي قد تقطع مصروفاتي، وأن خالاتي اللاتي يرفضن أن أعيش مع إحداهن أكدن لها أن أخلاقي سيئة، لا يريد أن يسمع هذياني مرة واحدة.

يتحدث عن الوعي .. الطلابي وعمال كفر الدوار، اختصر له الحكاية وهو يغير أوضاعي من زاوية نظره في المرآة يتفحص صورتي، صدر صغير، وجه أسمر نحيل شعر قصير يفك ضفائره، يهمس لي بأن معالمي ذكورية تقريباً، خاصة حين أدخن، وهو يحب هذا.

.. يمارس مهاراته الجنسية عدة مرات وعلى وشك إعيائي، كنت أقول له إنيٌّ لا أِشعر بالسعادة بهذه الطريقة يقول: أنت باردة، وأحياناً كان يرى أن هناك خللاً بيولوجياً في أعضائي، ويؤكد كل مرة أنني عاهرة وأنه يعرف كل ذلك، وأن هذا لا يهمه، المهم أن يكمل الصورة.

*

قالوا: أخوك اعتقلوه، ركضت مثل فأرة في نفق مظلم مرقت "عليا" كانت تضع ثيابها في حقائبها قالت: أخوك لا أمل فيه .. اختار طريقه على أية حال، نسيت أن أقول لها إن ثمة امرأة. كان اسمها الملكة ناريمان ترتدي ثوباً أسود وتدور تبحث عن ولد لها في المعتقلات.

قالت: "مها" بالمستشفى

باقة ورد على يدنا وخطوات رتيبة بممر طويل، كان خالد هناك، أسمر ودامع يسند رأسه على الحوائط، تحدث مع "عليا" عن التأمين

الصحي وأمها المريضة بالروماتيزم. وكانوا يعبرون بأروابهم البيضاء، يلتفون حول ذي الشعر الأشيب، يهمسون أحياناً وتعلو أصواتهم أحياناً أخرى كأنهم يثرثرون في مدرج ما، يتابعون النبض، والضغط، والجلوكوز المعلق، ويستفسرون عن عدد الصمامات التالفة، ويتأكدون من أربطة الجروح ثم يخرجون، فتأتي مجموعة جديدة.

قالت "عليا" لو بقت هنا ستموت

فتساءلت وهل لو خرجت لن تموت؟!، لو مسحت غبار السنين من يديها وتابعت سقوطها مرة تلو مرة من على الأراجيح ونظرت في المرآة فوجدت كل شيء مضى ولم يبق إلا أشباحا .. تجلس في شرفة قديمة يراقبون عدد الياسمين الذي تساقط على الأرض هل سيسترد قلبها عافيته؟!

قال خالد: سأكون بجانبها

وحين تحركت يداه بانفعال ليشرح الحالة لمعت في اصبعه الدائرة الذهبية فأيقنت أن كُلاً منّا قد صار بمفرده تماماً، وأن نظرات "مها" المستسلمة هي حافة اليأس والاحتضار، لم يعد بوسع أحد منا أن يبقى مع الآخر، مضينا وتركناها. وفي الممر كانت جثة تخرج محمولة بلا صوت، فأدركت ساعتها أن الموت هادئ جداً وقريب، أيام قليلة عبرت بعدها "مها" إلى رصيف التذكارات، كانت ودودا جداً وبسيطة، تحمل كل القمصان التي لم تلبسها وتهدها لنا، قالت انظري "البيبي دول" .. انظري جميل أليس كذلك؟!، ثم مضت محمولة ..بهدوء كل الموتى وتركتهم يتوادعون.

وضعت "عليا" حقائبها في سيارة حمراء، قالت: ابن عمتي، السن

ليس مشكلة، المهم التفاهم والعشرة، حدثته عن المعوقات النفسية للتواصل بين الجنسين في الدول المتخلفة .. حدثته عن اختلال مؤسسة الزواج بسبب هذه المعوقات، قال: إنه يتفهم. المحبة ليست ضرورية على الإطلاق، صرت أفهم الحياة بشكل أعقل.

قالت "عليا" كل ذلك ثم ولت مسرعة وخرجت ناسية في غرفتنا، تفسير الأحلام، وسيكولوجية الإنسان المقهور، وأوراق أخرى كانت تسطر عليها ابحاثها.

تفرق كل واحد في اتجاه، تركوا للبنت -التي كانت تخبئ ملامحها بالأغطية، وتغمض عينيها على الأسى- شروخاً عميقة اضطرتها أن تمزق كل ذلك في النهاية وتخلع كل الأغطية التي توشحت بها، وتراقب شعرها وهو يترنح طليقاً ومتعباً على أكتافها، تكتب في النهاية "ليس جرما أن نضل الطريق في غابة مظلمة" ثم تمسح دمعتها وتمزق القلوب والورد المجّفف وتلقى الفراشات الميتة في درجها للهواء.

❋

أشعر أنني حاجز يعبره حصان أهوج، يقفز في الهواء وتركلني حوافره كل مرة فأسقط.

أحياناً أصبح أنا الحصان، وأحياناً أصير الحاجز، وأحياناً كثيرة أعبر أرضاً بائرة أسميها روحي.

استراحت المشرفة البدينة من شكوى الطالبات الملتزمات من فجوري، لا أنام مع إحداهن في الظلام، ولا أتجسس على أجسادهن في الحمامات، ولا أراقب حجم أثدائهن إذا خلعن الحمالات، أنا فقط بذيئة، لا أهتم بإذن المبيت، ولا أخبئ رائحة فمي، لأني وحدي التي أبتلع ما أشاء..

قال: إن المؤسسة أول أدوات القمع البورجوازي، قلت له: أين أذهب؟!،

قال: تعالي

كسرنا معاً زجاجات كثيرة ورسمني عدة مرات، كنت ثملة وكان يحدثني عن "فان جوخ" الذي قطع أذنه لحبيبته، وكنت أريد أن أصرخ عندما جذبني من شعري، لأن أمه صارت تطردني كل مرة بعد أن تلطم خديها أمام الجيران ممسكة بملابسي الداخلية، وكان الزجاج تحت جسدي. ولم أصرخ .. وبعد أن ركلني كثيراً، قال إنني أكتب فيه تقارير سرية لأمن الدولة وربما أشي به للتنظيم، جاءت أمه وكنت أنزف وكانت أشياء كثيرة تؤلمني، لكنه أصر على أني وشيت به وأني شرموطة حقيرة وأن والدي لم يكن صانع طرابيش كان قواداً حقيراً، صار ذلك فاصلاً متكرراً اعتدته، خاصة بعد أن يمزق قصيدة رديئة ظل يكتب فيها طويلاً أو يتحدث عن إقصائه من التنظيم السري، وغالباً ما كانت تحدث هذه النوبة بعد أن يمزق محاولة جديدة للوحة كان يسميها "غامضة"، يرسم فيها وجهي بمعالم ذكورية أكثر، ويقول إنه يعيد خلقي، وإنها ستصير بعد أن يطلق النار على رأسه أشهر من لوحة عباد الشمس لفان جوخ.

*

وجهي في وجهه ويبقى "نادر" شارداً. يداه معلقتان في الأربطة وعلامات جسده مازالت تسأل أسئلة محيرة عن الاستبداد والعدالة والحرية، أركض وراءه، نختبئ تحت فراش "ستي"، نركض وراء أرانب بيضاء صغيرة تملأ الأرض، وسعد باشا ينام على ساق الملكة في شرفة كانت تطل على القمر، ينام فيها الآن الولد الصغير الذي كبر ويتحدث عن الزنزانة ورائحة الدم على الجدران والمحقق الذي ظل يحدثه!

.. قال: إنه يرفض العنف، وإنه لم يدبر أي اعتداءات بالجنازير على تجمعات طلابية ماركسية أبداً، لطمه المحقق على وجهه، وقال: إنه يختلف معهم، لطمة أخرى مختلفة مع من؟! قالوا: إنه عضو يثير البلبلة ويشق عصا الطاعة .. ثلاثة أجساد تناولته وحين سقط تركوا فوقه كومة من أوراقه، كان يرددها المحقق بصوت عال.

في عالم أصبح التغيير السريع سمة لكل الأنظمة، هل يصبح الثبات على الموروث هو حركة ارتجاعية متقهقرة نحو الخلف.

نفس الثلاثة يطوحونه ركلاً .. بأية صفة كنت تكتب ذلك؟! نفس السؤال الذي لطمه به الرفقاء قبل ذلك، بأية صفة تعترض وتناقش سياسة التنظيم العليا؟! أنت استعراضي وتهوى ترديد مقولات جوفاء رغبة في الزعامة .. تطوح بين كفوف الثلاثة ثم هوى،

قال إنه لا كهنوت ولا وصاية من أحد، هذه الحركة الإسلامية ملك لكل أبنائها، قالوا له أنت ثرثار. التنظيم أساسه السمع والطاعة وليس المراء والجدل.

قال المحقق بأية صفة كنت تدون هذه التعليمات، ألست زعيم هذا التنظيم،

قال: العلاقة داخل التنظيم أبوية، الأب، الشيخ، المعلـم .. قلت لهم إن التنظيم بصيغته الحالية هو تنظيم للعميان القادرين على السمع والطاعة، وغالباً ما ينظر للمتميزين نظرة ريبة وشك، على أنهم مرضى القلوب أو ثرثارون لا فائدة منهم، وتحت دعوى السمع والطاعة يتم ترويضهم أو إقصائهم، قالوا: "يثير البلبة"، ... ثلاثة أرجل فوق صدره، صدره مازال يوجعه، مازالت أقدام تضغط والمحقق فوق رأسه، من هم لمن وجهت هذه الإنتقادات، إذا كنت حقيقة لست أمير هذا التنظيم؟! ألقي له ورقة وقلماً، كان يمسح آثار دمه في الحوائط، ويركض معي في حقل الأرانب، ارتدي سترة سعد باشا بنجومها على الأكتاف، انظري يا ندى .. ضابط طيار .. نركض نركض وسعد باشا يغلق عليه باب غرفته ويقول "يا ملك ظلي بجانبي سوف أموت الآن".

يمسك الورقة والقلم، يكتب: لابد من الخلاص من عقلية التنظيم الخاص لأنه صيغة للتزاوج بين كيانين يعانيان الفصام، التنظيم الخاص الموكل إليه بأعمال عنف انتحارية هو كيان اضافي سيقوم إمَّا بالشقاق بين الصفوف، أو بأعمال همجية لأنه يعتمد على صيغ العنف والبلطجة وطرحنا الإسلامي طرح حضاري.

لابد من إلغاء السرية فالسرية لا تحقق جوًّا تتبلور فيه الكفاءات وإنما تخلق مناخاً للتسلط والاستبداد، وبذلك يصبح التنظيم الإسلامي الوجه الآخر للحكم الفاسد، وبذلك تصبح كل محاولات الفكاك من الفساد والاستبداد شراكاً للوقوع فيه من جديد.

يغلق أوراقه فيعود للتطوح تحت السياط، "قلت لك أكتب الأسماء يا بن .. لاخطب ومواعظ .. فاكر نفسك من؟! حسن البنا بجلالة قدره" يسقط من فوق الخوابير يمسك ورقة وقلما جديداً يسطر كل الأسماء التي

مرت بذاكرته يتطوح من جديد في أربطته علـى فراشـه يواصـل صراخـاً موجِعاً من أشباح تجلده.

⁂

الجروح التي في ظهري لم تلتئم بعد يقول إنني عاهرة، أردد ذلـك "لعليا" فتقول: "ليس المهم مـا يقولـه المهـم مـا ترينـه أنـت فـي نفسـك" نتحدث عن الفصـام الثقـافي والنضـج النفسـي عـن موقـف المثقـف المتناقض تجاه المرأة، اشكو لها كل مرة مـن جروحـي مـا عـادت تقـول غير كلمة واحدة: أنت اخترت خبرة التمرد، ووحدك تتحملين نتائجه.

في بار الشيخ علي مازالوا يتحدثون عـن التقدميـة وخلخلـة القيـم الطبقية، ندخن بشره، ونكتب أشياء عادة ما نمزقها، "مها" تأتي لـي فـي الأحلام تعد الأيام الباقيـة فـي عمرهـا وتحدثنـي عن الصمامـات التالفـة والفقر، وتعطيني قميصاً، أقول لها إنـه يرى جسدي ذكوريًّا وظهـري بـه جروح كثيرة تمضي كطيف ثم تعاود في ليالي كثيرة زيارتي في الأحـلام مازال يتابع ظلاً ثالثاً.

دائماً يتبعنا، وصار جسـدي معروفـاً بتفاصيلـه لـدى كـل الجيـران، لأنـه إثر كل مرة يأخذني فيها عدة أيام يعود ليكمل اللوحة، ويقـرر جهـة التجسس التي أنتمي لها وبعد عدة صفعات وركلات أسقط، وتولـول أمـه ثم أحتمي بالجيران.

⁂

عدت لكتابة تلك الأشياء التي أسميها قصصاً أو تذكارات، لم يعد هناك مدرس الفرنساوي ليثني عليها، أو يعيد "نادر" تصحيحها، الآن أكتبها لأجد ما أفعله إذا جلست في الشرفة بجوار امرأة كانوا يطلقون عليها الملكة ناريمان صارت الآن وحيدة وذابلة تتقاسم معي الصمت والفراغ. غبار طباشير الفصول على يدي، وشقوق بيت أبي تتكاثر وأنا وحيدة، أتشاغل عن الوحدة باجترار الصمت وحروف الكتابة.

.....

الولد الذي كان يصطاد معي الفراشات طار، قال إنه سيسافر لأن يده ترتعش بالمشارط، أمي لن تبكي على غيابه، ستبكي وهي تغلق معي صندوقاً ترص فيه كتب التشريح والباثولوجي والأكلينكي، وصوراً قديمة لخريجي كلية الطب دفعة ١٩٤٣ من جامعة فؤاد الأول، ودرع المستشفيات العسكرية تقديراً لجهوده في حرب الإستنزاف، وشهادة تقدير من نقابة الأطباء، وقصيدة من أحد المرضى يشكره على إنقاذ طفلته الوحيدة يقول فيها:

جعل الله في يدك الشفاء .. يا نصير الغلابة والأبرياء.

.....

البنت التي كانت تلعب على سلم بجانبه كافورتان كبرت، حلت

ضفائرها تماماً، لم تعد تركب الأرجوحة التي نصبها لهـا بين كـافورتين، ولم تعد تتسلق الأشجار، ولم تعد تشاكس في أحدًا صـارت تجلس جوار أمها في الشرفة، لم يعودوا يطلقوان على أمها الملكة ناريمان، لأن أمها لم تعد تفك ضفائرها ولا تتعطر، ولا تجلس في الشـرفة لتطـرز الكانفـاه مـع صويحباتها، أمها صارت حزينة جداً وعجوزاً وربما صارت ودودًا معهـا لأن الذي كان يتعاركان على محبته مات، أغلقوا عليه باب القبر، فصـار فقط يأتيهما في المنامات.

كلاب بيتنا تنبح، هل مر من أمامهم أحد؟! هل جـاء قـاصداً أحدًا؟! باب بيتنا لا يستقبل إلا رجلاً واحداً يعدون لـه العطـور والمناشـف، نـامي في حضني يا ملك ولا تقرري الرحيل الآن، سنعطي له هذه المرة، امـرأة أخرى تجلس في شرفة أخرى، كانت ترقص بثوبها اللميـه المقصـب أمـام مرآة دولابها وتعدد:

"قلبي مدينة وتاه مفتاحه كثرت همومه وقلت أفراحه".

*

(٣)

طوق الحمامة

مافي الدنيا حالة تعدل مُحبَيْنِ ، إذا عدمـا الرقبـاء ، وأمنـاَ الوشـاة ، وسَلِما من البين ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عـن الملـل ، وفقدا العُـذّال ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيـا فـي المحبـة ، وأتـاح الله لهمـا رزقـاً داراً، وعيشاً وقاراً، وزماناً هادياً، وكان اجتماعُهما على ما يرضـي الـرب مـن الحال، وطالت صحبتهما واتصلت إلى وقت حلول الحِمامِ الذي لا مردّ لـه ولابد منه ، وهـذا عطـاء لـم يحصـل عليـه أحـد ، وحاجـة لـم تُقْضَ لكـل طالب"(ابن حزم: طوق الحمامة: باب الوصل)

سيفتح باب العربة ويقول لكِ

انزلي!

في الشوارع المعتمة

حيث تطل صويحباتك من النوافذ

ويبتسمن

وأنت متلبسة بالجريمة

انزلي !

لا أريد أن أرى وجهك .

.. رأسك بين يديك ، ويداك بين ساقيك في الحجرة المعتمة ، عارية بجانب الحائط ، على الأرض ، تتكومين ، وتستبدلين النشيج بالصراخ المكتوم وتعضين على خرقة ، سيتضح لك بعد انتهاء النوبة أنها كانت قذرة ، وبعد أن يذرف جسدك كل مراراته سوف تحثين نفسك على التماسك ، هنا مقبرتك وتلك الليلة بالذات هي ليلة مولدك ، هو يعرف ذلك ، أنت قلت له مثلما قلت منذ سنة بالضبط بلهجة تمثيلية حفظتها من كل الروايات التي قرأتها عن التمرد .."هل يمكنك أن تشاركني الاحتفال بليلة مولدي ؟!" ، متأكدة ساعتها أنك تمارسين أخيراً دوراً يليق بك، وأنك لست جبانة ولا مكفوفة ، ولا موتودة في جذع نخلة ، وأنت كائن عاقل، بالغ ومن حقه أن يختار ، متحمسة أكثر من اللازم لفكرة أن كل ما لانطاله نموت بحسرته ، مصرّة أن تحققى إيجابيتك، فالوقت مناسب لمغامرة كبرى كمغامرتك ..، تضعين مقدمات أكثر مما تستحقه لمسة يد مهما بلغت عبقريتها، لكنك وجدت في تفاصيلها نفسك ، نفس السراديب التي طالما ضللتك ، هي التي قادتك إلى تعريج كفه ، الخطوط التي تتحسسينها بيدك ، موضع بصمته ، ملامحه التي لا تجدينها في ملامحه ، حقيقته التي تظنين أنه يخبئها تحت تفاصيل من الشك والعدوان و الوشايات ، نفس الخرائط التي تاهت بها روحك بين مقبرة وإطارات وحكايات لموتى جدد، يخرجونها من الأساطير ليكلموك عن أصلك وفصلك وما يليق بك وما لايليق ، الياسمينة التي علقتها على نافذتك تؤكد عبر ما ترسله من إشارات أنّ الحياة ليلة واحدة ، وعصفوران كانا يطرقان النافذة التي هي نافذتك ، التي يدخل منها القمر إلى فراشك ، أكدا أنه لابد أن تدخلي هذه المتاهة ، لابد أن تمدي يدك إلى معصمه . حيث يكمن النبض ، وأن تضعي سبابتك هنا، لتعليمه كيف يكون الحب ، حباً .

يده التي سينفضها بعد عام وهو يقول لك إنه ليس من المناسب أن

تمسكيها في السينما ، ستعتقدين أن لسانه يقول أشياء كثيرة لا ينبغي تصديقها وتواصلين البحث في كفه عن ثلاثة خطوط ، باحثة عن حلمك الذي يتوهج بين أصابعه ، بدأ منذ عام ، وفي نفس الليلة التي توافق وضع خرقة في فم الملكة ناريمان كي تتلقاك جدتك ، صغيرة وزرقاء ومتعجلة، كما أنت دوماً متعجلة على الحياة ! بعد سبعة شهور فقط تقررين النزول في ليلة معتمة كهذه ، عارية ، ومساراً للسخرية كما أنت الآن .

قلت إن الحكاية تبدأ دائماً بعصفور يطرق النافذة ، ينقر مرآتك ويحلق ثم يعاود اللعبة فتبتهجين سائلة أمك التي تجلس الآن وحيدة، ترص في خطاباتها القديمة وتحدثك عن التفتاه والأورجانزا المشغولة، وعن هذه الندبة التي تعرفين تماماً أنها أثر حصوة ركلها بها هنا في مفرق شعرها ، تضمين جسدك في الليل وتبتسمين ..

"هل يمكن أن تشاركني الاحتفال بليلة مولدي ؟!"

دعوة تجرأتِ وعرفت كيف تخرجينها من فمك ، بعدها بررتها بالوحدة والقلق والصداقة ، ودسست بين الحكايات التي كنت تخترعينها لتحكيها سؤالاً أكثر فصاحة عن ارتباطاته، ومواعيده، وكنت مستعدة لأي اعتذار هذه المرة ، فدون أن يؤكد لُطفك وأخلاقك ، ورقتك، وقبل أن يضيف أنك مثل كل إخوته، كنت ستنسحبين معتذرة لنفسك مرة أخرى عن سوء التوقيت أو سوء الاختيار أو القسمة والنصيب. لكنه لم يقل أكثر من اللازم ليجعلك معتقدة أنك بسيطة ومتحررة وقادرة على الحب والحياة . يأتيك ابن حزم ، يترك لك أول عبارة في دفترك:

"الحب أعزك الله أوله هزل، وآخره جِد ، دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ".

تضمين يديك حول جسدك العاري أكثر، ويلامس خدك الأرض الباردة، وتسكبين كل كل مالدخرت من معاناة.

تمدين يدك ، يدك القلقة التي كانت تمسك بشدة في عنق أبيك خوفاً من مفارقته ، أصابعك المتوترة التي كانت تستدفئ بأيدي صويحباتك بالدرج ، بردك الذي دسسته في القفاز متعففة عن السلام والكلام والتلامس، أيا كان صفته. تبحثين بين الخطوط عن اسمك المحفور بين التعاريج في كفه ، تسألين وتجيبك ، تضمك وتضمدك ، وتمسح عن قلبك كل هواجسه ، وتسقط الحروف المنطوقة والمكتوبة والمحفورة في الذاكرة ، تبتسمين في بلاهة ، ولا تحاولين اصطناع أي مبرر لاندفاعك ، ثم تستقبلين كل صباح بصوته ، أين تخبئين أرقك ؟! كيف تغافلينها لتسرقي حقك في الحياة . صوت العصفورة وهي تنقر الزجاج تغازل نعاسك ، استيقظي ، سيمر الآن صوته ، بين النعاس والأرق . تتأملين وجهك ، تجلسين على حافة الفراش قلقة ، افتحي صدرك قليلاً ، تأملي عنقك، مدى يدك وتحسسي مفرق صدرك وتثاءبي حتى يرن الهاتف . تركضين كفأرة ثم تتقمصك روح طفلة تتعلم المشي ، تُتَأْتئين بكلام غير مفهوم ، تنسين كل الذي أعددناه سوياً .يسألك :"نائمة؟!"تتأتئين : "نعم" .. ياغبية قولي له إنك لم تنامي أبداً.

يكمل :"صوتك جميل "

تضحكين قليلاً .."صَوت ضحكتك أجمل"، يقول.

يتسارع نبض قلبك ، كنت كبيرة وأنت تنظرين في المرآة وتحت عينيك التجاعيد ، وفي مفرق صدرك قطعة ثلج ، طفلة أنت الآن غارقة في الصمت ، ألطم خدودي وأقول لك إنه يغازلك ، يغازلك انطقي !!

تحتضنين الهاتف وتقرفصين على الأرض أمام فراشك وتواصلين حكاياتك الخرافية.

"هل تسمع صياح الديوك؟"

تضحكين "إنها ديوك أمي ، تقف تحت النافذة وتفعل ذلك" .

تقطعين بين كل مقطع بضحكة قصيرة ومهذبة "إنها لا تضايقني." تبيت في عشتها" "إنها تسكن أشجار العبل التي تفصل بين بيتنا وبيت عمي."

"كانت مزعجة في البداية ثم اعتدتها .. " تسكن اشجار العبل عصافير غريبة ، إن لها صوتا حادا .. عصفوران فقط ينقران نافذتى كل صباح"..منتهي الإزعاج "يقاطعك "ربما متحابان ، عصفور ووليفته "تخجلين خجلك، معناه أن تتضاءلي ارتباكاً ، ويتم اختزال سنوات عمرك أكثر وتزواغين مكملة باتجاه آخر ، "فوق التليفون يسكن كروان "، "أسقطه عامل التيلفون في العام الفائت وهو يغير الأسلاك، لكنه عاد وبنى العش في نفس الموضع " يتنهد ، تسمعين حركته في فراشه ربما يدس وجهه بالأغطية مثلك ، لو فتحت أمك الباب عليك الآن فستعرف من احمرار وجهك أنك تكلمين حبيباً ما ، ستغلق الباب بإشفاق لارتباكك ، وتزدادين ارتباكاً لو تثاءب ، ستدركين أنه يتمنى لو يضمك الآن وأن تغلقى الهاتف وأن تختبئى تحت نفس الأغطية التي يخبئ بها أنفاس تثاؤبه، تصمتين قليلاً، هذا الصمت وصلكما الوحيد ، حين تفاجئين بأصابعك تنحدر من تحسس الندبة التي أسفل شفتك، مارة برقبتك إلى مفرق صدرك ستضمين ياقة القميص وتغلقين أزراره حول عنقك وتواصلين .. 'هل تسمع صوت كلابنا ؟! "..".." إنهم ستة ..كارلوس ، وبيجن ، ومائيرة ، وزينة ، ودقدق وديانا " .."كان بيجن أكبرهم ، إنه

يشبه أحداً أعرفه ، عيناه ليستا غريبتين على الإطلاق " .."كارلوس وزينة لونهما أسود ،وزينة لا تلد ذكوراً إلا وتموت منها ..ربما تـأكل أولادها ، المرة الفائتـة وجدنـا رأس أحـد أولادهـا تحملـه فـي فمهـا وضعتـه بجـوار شجرة وكانت تبكي ، كان جسده مأكولاً، أمي تقول لا يمكـن أن تـأكلهم ، إنها خائبة فقط وتتركهم للعرسة والفئران . "ديانا بيضاء جـداً وضعنـا لهـا ببيونا حمراء ، هي صغيرة وبدينة ، دقدق لونه بني تقريباً يشبه الدببة ..، تدخل أمك حاملة سجادة صلاتها ، يقبلك ويقول لك:

"سـأحدثك فـي المسـاء " تقرفصيـن فـــي فراشــك وتخبئيـن وجهــك بالأغطية منتظرة هذا المساء .

الآن أنـت حـرة بـلا قفـاز ولا أغطيـة ولا وجـه أمـك الـذي يزيـدك ارتباكاً ، تمدين كفّك لصويحباتك ليروا في ضوء خطوطه هل يزال علـى المساء وقت طويل ؟! ، تنتظرين طويـلاً متقلبـة علـى أوراق ابـن حـزم ، طوق الحمامة ، أول كتاب قرأته في الحب، رأيت فتـى فيـه بعمامـة يقبل الجـوارى خلـف الوسـائد المتراصـة فـي باحـات الـدور ويكتـب فـــي أيــام النزهات "الحب أعزك الله أولـه هـزل وآخـره جِـد" تخطيـن سـهاما باتجـاه "التمرد والقمع الاجتماعى، التمرد والتمزق الحضـارى ، ازدواجية المثقـف ودوره في قرض القيـم المعطلـة "خطـوط عريضـة مرسـومة بعنايـة تليـق برسالة دكتوراة ، قد تجدين "أولجا" في الشرفة تدخن وتكتب أشـياء مهمـة مثلك في أوراقهـا ، وبيـن كـل فاصلـة تتوقـف لتدخـن سـيجارتها وعينيهـا اللامعتين في عينيك تقول "كيف تعتقدين أن يعيش رجلاً لمدة عام دون أن ينام مع امـرأة ..أنتـم متحفظـون تمامـاً ، لكـن فـي الإعـلان عن نزواتكـم وليس معايشتها ." وقبل أن ترمي العقب ستعيد صياغة السؤال لتؤكـد لـك أنها تصيغ جمـلاً عربيـة فصيحـة ،معبرة عـن مقاصدهـا بـالضبط "كيـف يكتفي رجل نـاضج بـامرِأة تحدثـه فـي الهـاتف عـن القطـط والكـلاب فـي

الشوارع؟! " تقذفين كل الأوراق من على الطاولة ، عاجزة عن استكمال استدخال القلم إلى متاهات جديدة ، ناسية أنك لحم ودم ، متحمسة لاتهامه بأنه يخونك وأن هناك كثيرات في فراشه، وأنك لن تكوني واحدة منهن ، أنت عاجزة عن ذلك مشبوكة في خيوط الحرير والتنتنه، رغم كل تمريناتك على فك أزرار البلوزة ، مادة يديك إلى آخرها، متحسسة التعاريج التي تحبينها في كفه، معتقدة أنها خريطة روحه التي لايعرفها، هي أصدق من عينيه الحادتين اللتين بمواجهتك ، أصدق من لسانه الذي يركلك بالأحجار..

والمقعدان متجاوران ، والمرأة التي أمامكما في الشاشة يضمها حبيبها ، تمدين يديك إلى يده . هي فقط التي تعرفك وتطمئنين لها، يدفعها بعيداً "ليس الآن" ، يصافح يدك بدفعة ويدخر "لا أريد أن أرى وجهك ثانية" حتى نهاية العرض، وقبل أن تسقط الستارة يفاجئك بها كقبلة على جبينك يوم مولدك ، احتفالاً بمرور عام كامل على أول كلمة محبة تخرج من فمك "يبدو أنني وقعت في محبتك !"

الورد أسفل قدمك ، الورد الذي أعددته لتقديمه له بعد أن تطفئ الشمعة ، وتخرجين الحرفين اللذين رسمتهما للصائغ وشرحت له كيف يشبكهما ليصبحا حرفاً واحداً، تصميماً يثبت أنك تفهمين في النحت ، قلب كبير على شكل" أحبك" ، يضم الحرفين مضمومين كوردة، ومتعاشقين كالموت والحياة ، تشبكين أصابعك في أصابعه قبل أن تطفئا الشمعة ويقبلك في فمك ، ودون أن تخافي أو تخجلي أو تختلقي أشياء لتغضبى منها لتهربى من أنفاسه القريبة ، مطأطئة رأسك خجلة من فم مشروط بالخياطات ومسقوف بألواح المعدن أنه الآن جاهز للالتصاق ناسياً جروحه، لكنه لم يقبلك ولم تغضبى، عقدت فمك كما كنت تفعلين طفلة وسكبت عينيك دموعاً لم يرها، وتظاهرت بالعناد، وعدت مهزومة أكثر

لتجلسي فوق إحباطاتك تكتبين في أوراقك أشياء لا هي قصص ولا أشعار، إنها فقط خدوش وجهك من أثر حادث قديم .

الولد الذي أحب أهداني عقداً بلون الغيم ، وغاب ، فظللت أعد حبات غيابه ، وأخضب الأيام ، مرة بلون القمر ، مرة بلون الشمس ، ومرة بلون دمي الذي يلفظه رحمي في موعده.

ودار كل شيء دورته، وحين توسدت صدر غيابه نظر في وجهي وقال: إنه مليء بالندوب. الولد الذي أحببته كانت عيناه مليئتين بالشجن، وفي جفنه جرح قديم، وحينما يبكي يداري وجهه بكفيه ولا يرى أحدٌ إلا جمود حدقتيه. قابلني اليوم ولم يكن فيهما إلا التجاهل ، قال إن كل النساء اللائي يعرفهن يحببن العطور، ويحاكين الملائكة, قلت إن الملائكة حمقى، حاولت تقليدهن في الحقيقة ، لكننى بعد أن سكبت كل العطر الذي أهداه لي ، اكتشفت أني لست وردة ولا فراشة ولا ملاكاً ، ولا حتى طفلة لقيطة تتسول محبته ، أنا نبتة صبار صحراوي يتزود بالمرارة كي لا تلقمه القطعان الهالكة.الولد الذي أحببته، وأريت أمي صورته، وتجرأت وصارحتها في صحوى أني أحبه صار إذا حدثته عن محبتي يركلني بالحجارة ، وأمي التي كانت تشمت في خيباتي ، صارت تشاركني الوسادة التي تمتص دمعة من عيني ودمعة من عينيها.

الرجال الحمقى صاروا إذا نظروا إلى وجهي يقولون "ملاكاً" الرجال الحمقى صاروا يتغزلون في عينيَّ، الرجال الحمقى لم يروا فمي المحاك بالخياطات ، أنت وحدك الذي بحثت ودققت فلم تجدنى ملاكاً ولا قطة تموء ، فهل أقرضتك أمي عينيها لترى أنى "خلفة شياطين" وأنا التي لو فتحت لك المقبرة الآن فلن تجد عينيّ أبي لتراني بهما ، ستجد فقط محجرين خاويين من الألق ، لكنك لو نبشت في التراب قليلاً ستجد قلبى.

الصديقة التي كانوا يربطونها في ساق الفراش، كان اسمها "نهُى" كانت جميلة جداً ، تهرب من بيتهم حين ينامون وتأتي إليّ ، وقد تبيع لي أثوابا، لعروستى ، وحين نبنى البيوت كانت تختار دائماً أن تكون العروسة ، وكنت أرضى أن أزوّقها ، وأزغرد في فرحها ، ولم أكن العريس ولا أمها ولا أباها ، فقط كنت أرضى بأن أكون وصيفتها ، والصديقة التي كانت أمها دائماً تكويها في ساقها ، لم أعد أذكر اسمها ، كانت تبكي وتكشف فخذيها وتريني العلامات وعندما صارت أطول منى قليلاً كانت تكلمني من خلف ثقوب بابهم وتقول إن أباها منعها من الخروج، وأن أمها ستذبحها لو كشفت فخذيها ثانية .

أما الصديقة التي ماتت فكان اسمها "مها"، كانت وديعة جداً وكنت أحبها ، كانت تقرأ لي كفي وتقول إن أول حرف من اسمه "ألف" وتتركني. بعد ذلك أبحث عن كل الأسماء التي تبدأ بنبوءتها ولم أكن أجرؤ أن أقول إن أمي لو ماتت فلن أتزوج غيره، لكنها لم تمت الذي مات هو "أبي" و "مها". أما الصديقة التي كرهتها فكانت تنام معى على نفس الوسادة، وأضع يدي في يدها ونحن في طريقنا للمدرج، وأحجز لها الكتب ، وأدون لها المحاضرات، وأحكي لها كم أحبه. وكم أتمنى أن

أعيش بجانبه ، ولم أبال بنظرات الاستخفاف التي تقتلني بها ، لكنني حين رأيت أيديهما تتعانق من تحت سياج الخشب في المدرج لم أبك . وحين استعارت بلوزتي وقابلته بها ثم قال لي بعدها إنها جميلة جداً أجمل صديقاتك ، وأنها تعرف كيف تفك أزرار البلوزة التي تبدو عليك مثل سترة المجندين وأنني أشبه كل إخواته. بكيت، أما هي فلم تحادثني، فقط استعارت حمالة صدري.

لا أحب لعبة العريس والعروسة ، ولا أحب أن اقف في الجون ، ثلاث مرات تكسر ذراعي وهم يشوطون فأسقط ويصفقون للكرة ، وصرت أخاف من تسلق الأشجار ولا أموت، ولا أحب الحجلة لأن أمي تقول إن ساقي ليست جميلة وأن أصابعي طويلة جداً مثل أصابع جدي، ولا أحب الاستغماية لأني حين أخبئ عينّي يقبل الصبية صديقاتي من خلف الأبراج ، وفي ثنيات البيوت الضيقة و يتركونني أتخبط من جدار لجدار ولا أعرف كيف أصل لشيء، أحب لعبة المسّاكة ، أقول طاحت ويلهثون ورائي فلا يستطيع أحد الإمساك بي ، فقط أظهر وأختبو ويحلمون بإ مساكي في خلواتهم فأخرج لهم لساني وأقول "أنا القمر" وحينما أبكي من الوحدة وأقول للذي في عينيه سري .."اقترب" يقول "أنت لا تعرفين المحبة"..

قبلني أبي في فمي واعطاني وردة فلم أقبل وردًا من كل الصبية، ولا من مدرس الفصل ولا من "المعيد" الذي رسم لي وردًا في كتابي وهو يشرح لي في المدرج "هند زيد ضاربها" ، كنت أراهم صغارًا جداً و ليس في وجوههم ألق وجهه، كنت أنظر للقمر وأقول له إن خلفه وجه من أحب، ولا ينام في حجر غيري ، وحين مات صارت أمي تقطف كل زهور الحديقة وتعلقها على صورته ، وتنعس على حجري وتقول: "أقرئي له قرآناً" وحين استكنت لصدرها قصت أظافرى وضفائرى وحبستنى في الإطار ، وحينما أحسست بالعجز ، تحسست ندوب وجهي وقلت للولد النحيل الذي يحب فتاته السمراء ، "أنا أحبك" فقال لي بأسف أنت مخلوق جميل ، لكنك خجول جداً ، وإن هذا يربكه ، وأنه يخاف لو لمس يدي أن أتحول إلى قطرة زئبق ، ثم انسحب ، وظل يصنع من شعور فتاته السمراء ضفائر صغيرة ، ويصفها بعناية ، ولا ينظر لي ، وحين قابلت من في عينيه سري قلت له "لن أفقدك" ففككت شعري وأطلت أظافري ، ودهنتها بالطلاء ، وقلت له اقترب ، فقال لي : أنت عبثية ومستهترة.

أمي التي كانت تحكي لى الحواديت عن ابيها الذي يغلق النوافذ ، ويغلق المذياع إذا تغنى بالمحبة ، كانت تقول لي إذا مت من المخاوف "رقيقة ومهذبة"، وإذا خاصمت صديقتي التي كانت تتشدق بلبانة في فمها "أنها أجادت تربيتى"، لكن بعد أن صارت كل الحواديت لا تخيفنى وقررت أن أرقص مع الغجر على الأرصفة ، نكست أمي رأسها ولعنت

اليوم الذي أنجبتني فيه.

أمي التي أعرفها لم أرها وهي ترضعني ، ولا شممت رائحة صدرها ، كانت فقط تشدنى من شعري وتقول "جنية" ، أهرب من الباب الذي بلا ثقوب ، وأصاحب بنات الشوارع ، وتخجل أمام ضيوفها أن تقول إنها ابنتى . أمي التي لم يعرفها "هو" كانت إذا نعست في أحضانه ، وتشممت رائحة عرقه، وتركت أحلامي تسرح بين خطوط وجهه تأتي وتحملني بالليل وتلقي بي في الغرفة الخاوية ، وتنام بجانبه ، وفي الصباح تضحك وتقول هذه المخلوقة أنت أفسدتها ، ثم تجيء أنت الآن وتطالبني أن أكون أماً ، أنا التي دعوت الله ألا ينبت رحمي أية مخلوقات . وقررت أن أكون ابنتك فقط وأن أعطيك أصابع نحيلة تعبث في شعرك حتى تنام.

عندما كنت أريد أن أعذبه كنت أسعل وكان صدري ضيقًا جداً وعليلاً ، تقول أمي "ذئب صغير يعوي " وعندما كان يغضبني كنت أجمع ثيابي وأضعها تحت رأسي وأنام على البلاط البارد ، وأقول "سأترككم ..لا أحد يحبني ..حتى أنت" ، فيحملني أبي بين ذراعيه ، وقد يضعني

بين صدره وظهر أمي . كبرت قليلاً ، قلت لمن أحب :'سأتركك إن لم تحبني ..سأتركك' فتركني ، وحين ألقيت بنفسي على رصيف قلبك البارد الموحل ..بعدت المسافة أكثر ، كبرت قليلاً مسحت دمعتي وحدثت نفسي عن التماسك ، لكن السعال كان قد جرح صدري.

.....

حاولت أن أكون كما تشتهي "أنت" أو تريد "هي" ، اجتهدت كثيرا أن أصبح المرأة التي تحبها ، أو الابنة التي تليق بها، لكنني كلما حاولت إرضاءها ، أغضبتك ، وكلما حاولت مصالحتك جرحتني ، أعرف أني بحاجة لعبور بحر مالح كي أجد بعض الحلاوة في الأيام التي تمر ، سأعبره ، لكني لا أريد أن تكون المرارة فقط هي وديعتكما لقلبي .

باب من أحبَّ من نظرةٍ واحدةٍ

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، هو دليل على قلة الصبر ومُخبر بسرعة السلوّ، وشاهد الظرافة والملل ، وهكذا في جميع الأشياء ، أسرعها نمواً ، أسرعها فناء وأبطؤها حدثاً، أبطؤها نفاداً".

"طوق الحمامة"

تضمين يديك حول رأسك أكثر ، رأسك المليء بالأفكار ، أنت وعريك ، والبلاط البارد، وأصوات البنات في البناية يركضن ، وبابك مغلق على قبرك ، تجترين من صناديقك القديمة خيوط الحرير والتنتنه ، أين رأيته؟!

تذكرين كل شيء بتفاصيله ، لأنك حكيت نفس الحكاية ، مرات عديدة لوجوه عديدة ، قابلتك على السلم ، أو في حجرتك هذه ، ضممت يدك مقرفصة كما اعتدت وأنت تحكين ، لأنك أنت الباذنجانة الزرقاء "تون" كما تعرفين عن نفسك. لم يكن لك وجود ولا تاريخ لكلمات كانت مرادفة لديك لطأطأة رأس أبيك بأسف ، أو ابتسامة شامتة تخبئها أمك: الحب والجسد، والعلاقة بآخر ، كنت أسيرة أضلاع لمثلث واحد ، كان يضيق ويتسع ويتركك بين أضلاعه تعيشين الخواء ، صناديق جداتك ،

وغرفة أبيك ، ومتاهاتك ، ثلاث خصلات لضفيرة شعرك المشدودة للوراء ببراءة، حرصت عليها طويلاً، حرصت عليها كمخطمة تطوق عنقك، مشنقة كبيرة تسميها براءة، اتضح لك في النهاية أنها تعني أن قلبك سيظل منهوباً كأرض مستباحة يترك فيها الأطفال برازهم، والأكبر قليلاً يمتطونها ككلبة في الشوارع الضيقة، لم تكوني تعرفين أنك سقطت في وهم هذه البراءة إلا حين سمعت سخريته، "أنت ساذجة أم غبية؟!"..هل تعتقدين أن بامكانه أن يصدق ما تدعين من براءة ؟! ..أنت حمقاء بالتأكيد.

كان يقصد أن يقول إن ما رأيته طوال عمرك قيمة كبيرة مجرد وهم سخيف ، ولم يفهم بعد ذلك أي شروح تفصيلية ، لأنه حين آمن بذلك، تأكد أنك غير طبيعية بالمرة ، أنت مجنونة ولأول مرة تشعرين أن هذا اللقب الذي تطلقينه على نفسك كدعابة بين قوسين يؤكد بساطتك في التعبير عن نفسك، مدية حادة تخترق وعيك بذاتك ، في الأرض تتمرغين، لا تجترين فقط طعناته، بل تتركين خيوط الحرير تدغدغ ذاكرتك، يدك التي امتدت من أول لقاء لتسلم عليه ، ورقة صغيرة احتفظت بها عليها اسمه ورقم هاتفه ، تذكرة السينما واسم الفيلم وأبطاله ، أول ثوب ارتديته له ، كان به حلقات تشبه دوائر صغيرة متشابكة كحلية ، رغم أن أمك تقول إنه غير مناسب لك لأنه كثياب الأطفال ، فسترتدينه وتدفعين في حلقاته وتحذفين عشرسنوات من عمرك لتعيشي ما نسيت أن تعيشيه، مخلصة لذكرى الذي قبلك ورافق الجلطة ومضى ، متعظة بحكاية قديمة دأبت على حكيها في المسجد بعد أن تتحدثين عن فضيلة التعفف، وغض البصر و الزهد في الدنيا وزينتها " وما عندكم يفنى وما عند الله باق".. تقولين بتأثر بالغ..

"كان بالكوفة فتى جميلٌ عابداً ناسكاً لا يبرح موضع صلاته، رآته

فتاة جميلة المطلع وهو يريد المسجد ، فشغفت به وطال ذلك ، فلما رأته يوماً قالت له يافتى ، إسمع منى كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت ، فقال لها ..هذا موضع تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً، طفرت الدمعة من عينيها ثم أكملت والله مالا وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكنكم معشر العباد مثل القوارير أدنى شيء يعيبها ، وجملة ما أقول لك إن جوراحى كلها مشغولة بك ..فالله الله في أمرى وأمرك ، فكتب الفتى لها قرطاساً ورماه إليها ..قال لها فيه اعلمي أيتها المرأة إن كان ما ذكر باطلاً فإني أذكرك يوم تكون السماء كالمهل وتصير الجبال كالعهن ولا يعرف خليلٌ خليلاً ، وإن كان ماذكرت حقاً فإنى أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه ، أما أنا فمشغول عنك بقوله تعالى "وأنذرهُم يومَ الآزِفَةِ إذ القلوبُ لدى الحناجِرِ كاظمينَ ما للظالمينَ من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاعُ يعلَمُ خائنةَ الأعينِ وماً تخفي الصدور"

"فبكت بكاء شديداً وقالت له : اسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا بين يد الله تعالى . ثم لزمت الفتاة بيتها وبكت بكاء شديداً ، أشد من بكائها الأول فلم تزل على هذه الحال حتى ماتت فكان الفتى يذكرها بعد موتها ويحن إليها ويبكي فيقول له فيما بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك ، فيقول : إني ذبحت طمعها في أول الأمر وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله فاستحييت أن أسترد ذخيرة ودعتها عنده ..وظل على ذكراها حتى لحق بها من الحزن.◆(٢)

وحدك تصدقين ما تحكينه لهن، تدخرين فرحك ولهفتك وهن

◆(٢) قصة تراثية وردت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

يتركنك بعد انتهاء الموعظة ليدسسن أيديهن في أيدى الآخرين بين القاعات والمعامل والأدراج ، وتلبسين أنت قفازك ، وتطوين رمش عينيك متدثرة بحكاية واحدة من صقيعك الداخلى ..كان الفتى وكانت الفتاة ، حكاية مر عليها الآن خمسة عشر قرناً لا تدركين معنى ذلك إلا حين يواجهك بعينيه "أنت حمقاء وغير طبيعية بالمرة" ساعتها فقط يتضح لك أن ذلك كان زمنا ما غائما ولايخصك وأنك تتمنين أكثر إلى "أولجا" التي تدخن في الشرفة متحدثة عن أن الحب خبرة حواس وأنك رومانتيكية أكثر من اللازم ، وأن أفكارك أيضاً التي تسطرينها في هوامش أوراقك المهمة أكثر رومانتيكية وتهويماً في الخيال ، ستطلقين يديك من على الأرجوحة وتتمنين دفعة قوية تحولك إلى فراشة، إلى غزالة أو تركضين في صحراء ممتدة وصافية ، إلى صقرة تنام في كهف عالٍ على أحد الجبال ، ولن تطيرى، ستسقطين مرة أخرى على فمك ، وفكك المليء بالكسور، وستئنين على الأرض محتضنة خرقة قديمة مرسوم عليها قطة تموء تضمينها وتقولين ، من جرحك بين ضلوعك ياياسمينا ؟! ترشين البنسلين على الجرح ، لن يطيب ، ستظل تموت على الخرقة التي تمسحين بها دموعك.

يده في يدك ، تمسح كل الذي تعرفينه عن نفسك من جروح ، يده فقط تطوحك بعيداً كما كان أبوك يطوحك بين ساعديه وجسدك الضئيل يتفتح تحت وطأة عوالم لم يألفها ، لن تنامي تلك الليلة ستضمين عقداً وزجاجة عطر إلى صدرك وتختارين أين تخبئينها وأنت بلا حاجيات ولا دولاب مغلق ، أنت مباحة بلا أسرار كل سكناتك وعاداتك يألفها الجميع ، ورقة وتذكرة سينما تخبئينهما في دولاب أبيك ، في سترته التي عليها النجوم ، وعليها آثار كل الجراحات التي أجراها بمشرط هناك في مستشفي التل الكبير العسكرى وأنت لازلت في طور الباذنجانة، تلك

السترة التي كان يعتز بها وتغطيها أمك بعد مماته بالأغطية في جيب السترة، موضع القلب حيث تقبلين السترة أحياناً ، ورغم أنها بلا رائحة غير رائحة النفتالين ومضادات العتة ، فستمسحين بها دموعاً كثيرة معتقدة أنه يحسك، وأنه بذلك سيغفر لك خيانتك لذكراه ، وسيسمح لك أن تؤجلي مسألة المجد هذه ريثما تحتضنين شيئاً يخصك ، بعدها ستواصلين البحث عن مكان لائق باسمه الذي تحملينه ، وذكرى الولد الذي تحبين في يديك لا تنمحي ، تنامين ، وتستيقظين عليها ، سائلة هل هذا الذي تحملينه بين ضلوعك حباً ؟! ، تتنهدين مكتشفة أن ذلك في الأثواب الضيقة التي صرت ترتدينها جسداً ولك شعر طويل ، ولك وجه يتأملونه الآن باستحسان ، وأن بقلبك ضحكة تكممها يدك التي تنطلق تلقائياً إلى فمك مخبئة اعوجاجاً ترينه بوضوح،

وجروحاً خبأها الزمن .كانت خياطات طولية وعرضية يخرج لها الأطفال لسانهم وهم يحاصرونك "سيسي يا سيسي يا سن الفار ، سن النجار أبو منشار " مؤكدين لك أن فكيك لا ينطبقان على بعضهما ليحدثا هذا الصكيك المصاحب لسخريتهم ، معتقدة أخيراً أنه لم يُحيي العظام وهي رميم فقط ، بل كساها لحماً ثم أنشأها خلقاً آخر ، تبارك الله أحسن الخالقين ، تقولينها لصورتك في المرآة وتتنهدين فاتحة صدرك قليلاً راضية عن الحياة التي أعطتك أخيراً أكثر مما كنت تنتظرين.

باب الوصل

"من وجوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع. بل هو الحياة المجددة، والعيش السنيّ والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة . ولو أن الدنيا ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفا الذي لا كدر فيه ، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه، وكمال الأماني ومنتهي الأراجي .. وعني أخبرك أنى مارويتُ قط من ماء الوصل ولا زداني إلاظمأ "طوق الحمامة".

مستسلمة بدهشة ، نصفك يشاهد ، ونصفك يعيش ، شطرين متواجهين ، فمك على فمه، ملتصقين بهدوء يفزعك ، يؤكد لك أنك بنت مثل كل البنات ، لا طيرة ولا كتلة لحم معجون بها ملامح ، يقول وهو يضمك أكثر "كم نحن متشابهان ؟!" ذلك أيضاً وتتحسسين قامته بيديك، فقرات ظهره في احتوائك ، مستغربة بساطتك ، عيناك بعدها لن يكفا عن اللمعان الأثيم الذي يتبع الجرائم ، وفمك عن التوق للالتصاق. تضمينه أكثر في صحوك ونومك ، تهجرين أرجوحتك ، وترسمين للملائكة سهاماً

وقلوباً متكسرة ، معتقدة أنها النهاية التي يكتبونها فـي الأفـلام. فمك علـى فمه، ثم صبيان وبنت وتبات ونبات ، تختصرين كل الذي لـم تعيشـيه فـي فقرة واحدة تبدأ بكلمة "يبدو أنني أحبك" تنغمينها كالأطفال العابثين ثم تنفقين كل ما ادخرته من أرق وقلق وتدفق وخصـام وفـرح ، وفـي ثوب أمك ترقصين أمام المرآة، متحسسة مفرق شعرك باحثة عن ندبة مماثلة ، متعجلة كما كنت دوماً ، تركضين إلى الهاتف، دافعة يد أمك التي تتفقدك صارخة أنك كبرت بما يكفي، وعليها أن تتركك تعيشـين حياتك، تضمك أكثر مشفقة عليك مـن اندفـاعك مرددة كلمـات خوفهـا ، وأنـت تتحسسين جسدك بالليل دون أن تحسـي بضآلـة أو خجـل، ستشـعرين فقـط باللهفـة ، وتضمين يديك إلى تعاريج كفه ناسية كل الأراجيح التي سقطت منهـا ، لا تنامين ولا تستيقظين، بعدها تعدين حقـائبك وتخرجيـن مـن الثقـب الوحيد الذي يمكن أن تنفذ منه فراشة في علبة لها ثقوب ، راسمة وسـط السطر بخطوط واضحة:

"جدلية التمرد والقهر النوعي"

منهمكة أكثر مما ينبغي في مصادر ومراجع وخطط أوليـة للبحـث، معتقدة أنك تبحثين باتجاه ذاتك ، تفتحين الأقواس وتكتبين:

[يحتل جسـد المـرأة حـيزاً كبـيراً مـن دائـرة اسـتلاباتها ، فـإن كـان الكبت هو أول محاور استلاب المرأة وانتهاك آدميتها فهي في نفس الوقت أداة جنس، هذا التناقض بين وظيفة المرأة وصورة الجنس أدى إلى..كثير من الخلل في وعيها بجسدها وإلى تناقض أعمق في مفهوم الشرف والعفة في العقلية العربية]

تغلقين الأقواس وفمك نصف دائرة مشطورة تنتظر اكتمالها، وبـرج

القرد إذا كان مع السرطان أنثى فهو لطيف وأليف وله وجه مستدير يتأثر بالقمر وبحركة المد والجزر ، تقولين له ذلك كأنك تصحبينه لداخلك، هذا الداخل العميق بحجم كل السراديب التي حفرتها مع أرانبك بحثاً عن مخرج . و "أولجا" التي تشاركك الشرفة ستسألك "هل تعتقدين أن قبلة في فمك إنجازاً كبيراً يستحق أن تكرسي كل طاقتك لاجتراره ! " تلقي 'أولجا" أعقاب السجائر دائماً في الشرفة دون أن تطفئها ، تترك دخانها يتصاعد وهي لن تفهم أبداً أنك ادخرت كل هذا الأرق ،تعيشينه دفعة واحدة مع رجل واحد ، تعيشين معه ويموت على صدرك ويترك ندبة بين مفرق شعرك وهو يركلك بحصوةٍ ما ، سيضمك إلى صدره ناعسة ، حانيا كما تمنيت من الحياة، تقولين بعد ثلاثين عاماً من الزحف في أنفاق مظلمة لنفسك والمرآة أمامك تعكس جسد طفلة، وروحك متاهة كبيرة "من حقك أن تعيشي وتحبي ..هل تشعرين أن تخلصك من غطاء رأسك ذنب كبير يستحق أن تفسدى أفراحك الصغيرة بالحيرة أو التشكك في مقدرتك على أن تحبي وتعطي" ..تربتين على جروحك قائلة إنه حقك، سامحي نفسك ، نافية مشاعر الذنب ونافية كل تخاذل الكبت ، مقررة أنها حياتك وأنك وحدك المسئولة عن صنع فضيلتها بأشياء أخرى دون قمع روحك التي تهفو للمحبة. لم يفهم، ضممت فمك إلى فمه مرة واحدة وقلت "أحبك" ثم فتحت قوساً جديداً، مستمرة في الكتابة:

[الكبت محصلة لكل استلابات المرأة التي تم تشويه كل مفاهيمها وطمس إحساسها حتى للعلاقة الإنسانية ولجسدها ومطالبها البيولوجية ولآدميتها وكيانها الإنساني ..هذا الكبت التاريخي الذي يمارس على المرأة هو الذي دفع بها من مساحات الندية والمشاركة إلى دوائر الاستلاب ، إن جسد المرأة مؤسسى منذ البداية وليس الوأد إلا صورة من الاحتكار الذي يؤدي إلى علاقات ظلامية يحل فيها القهر مكان الحب

والتواصل]

في الليل فقط كان صوتها يأتيك ، تقول لك ارجعي ..وكنت تحدثينها عن مستقبلك وحياتك وأنه لابد أن تكوني نفسك وأن عمراً طويلاً سقط منك دون أن تعي معنى فواته ، وأنك كبرت بما يكفي لأن تصبحي وحدك ، ولم تكن المدرسة الداخلية التي طمحت لها ذات يوم لتعلمك ، كان مجرد سكن ردئ تركض فيه البنات بملابس تكشف أجسادهن ولا يخجلن، بل يقفن في الشرفات التي يطل منها المارة ويطلقون أبواق سيارتهم ، ستبحثين عن شئ يخصك في هذا المكان ، ولن تجدى سوى ممر ضيق يطل على بيت قديم ، وأعشاش لحمام تعس، كان بإمكانك أن ترى من هناك القمر أو نجمتين خابيتين تماماً ، عن يمينك "أولجا" التي تخط رسالة الدكتوراه في الأدب العربى، وعن يسارك "ساريا" تبحث عن التغيرات الاستراتيجية فيما بعد كامب ديفيد وحقيقة الدور الفعلى للسلطة الفلسطينية، وأنت تخطين للتمرد أوجهاً سيكولوجية عديدة بين الطبقة والنوع والدوافع النفسية والاجتماعية .. ثلاثتكن يشاركن فقط في ثلاثة أشياء ، شرفة وحمام ومطبخ وباب إذا أردتم سيغلق عليكن. ستنامين طويلاً بلا نوم ، قد تقولين 'لنادر" أنك وحدك، وأنك لا تعرفين كيف تنامين في بيت غير بيت أبيك وأمك، وأنك لست متأكدة أنك على صواب وتشعرين بالذنب أحياناً ، سيقول لك: افعلي ما شئت المهم أن تكوني مقتنعة ..ويغلق الهاتف سريعاً لأنه مشغول ، وستقول لك أمك ارجعي .كل مرة تقاومين بعناد محاولة أن تثبتي أنك سعيدة بدونها وأنك تعيشين ماكنت تشتهين ، فأنت تركضين في النهار تائهة، وتجلسين في الليل وحيدة تجترين مشاعر أكثر بؤساً، ولا تعرفين النوم.

باب الهجر

"وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة ، وأقلهم صبراً على المحبوب ، وعلى المكروه والصد وانقلابهم على الودّ على قدر تسرعهم إليه ، فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك، ولا تعنها بالرجاء في وفائه".

"طوق الحمامة"

في الغرفة نفسها المليئة بأوراقك ، ومسوداتك التي سطرت فيها أبواباً واسعة عن الكف والقمع والقهر النوعى والقيم الاجتماعية والحوافز التي يقدمها المجتمع كالرضى والتقبل والانسجام مع الفرد الخاضع ، تفتحين صدرك أكثر متحسسة عنقك مؤكدة بين الأقواس [وتم إجهاض حركة تحرير المرأة وإفراغ محتواها التقدمي واستثمارها لصالح البورجوازية لتحقيق نزعاتها الاستعراضية ثم أجهزت السلفية على هذه المكتسبات نهائياً إذا ألقت المرأة بحصاد نضالها لتعود طائعة مختارة لمواقعها القديمة من خلال التمسك بالتقاليد أو ما أسماه البعض بالردة الحضارية أي نكوص المرأة واختباؤها في ظل الموروث بديلاً عن التمرد والمسؤلية ، فقد عادت سريعاً إلى القفص وهي أكثر رضاء بالأمن بديلاً عن مواجهة تبعات التحرر ومنزلقاته ومن هذا المستوى تم إغلاق

ملف التحرر الجنسي بعد أن، تماهت المرأة ذاتها في مفاهيم الشرف والعفة التي تصنع عفتها الجسدية بديلاً عن وجودها الإنساني . وسلمت بأنها جسد نافع وعقل ناقص]

سوف تزيحين كل الأوراق المهمة جانباً ، تاركة كل التفاصيل التي انغمست فيها مداً وجزراً ، ضامة يديك إلى قلبك ، مقرفصة ، منتظرة طويلاً أن يجيء وأن تفتحي باب الوصل عن آخره ، راكلة كل قيم الخضوع في المزبلة، متحدثة عن الازدواجية والتناقض القيمي ، مجترة للمرة الألف تفاصيل اللقاء المعجز حين ضم يدك ثم جذبك إلى جسده ضم فمك إلى فمه في واقعة لم تستطيعي نسيانها ، الذي نسيته تماماً الآن هو وجهك الذي كان يبدو جميلاً كما لم تريه أبداً، فاتحة بتلك الليلة ذاكرة جديدة تؤرخين لها بيوم ولادتك على يديه، جميلة مثل كل الأطفال ، ومبتسمة بوداعة من ينامون على علبه الحليب ، وراضية عن الحياة كما أنت الآن ، بعض القلق والحيرة قد يتسرب من تحت وسادتك ، تدفعينهما بعيداً بيدك وتتعسين، وأنت ترسمين صورة فستان أبيض بعد أن تقول لك "ساريا" إن "السيرما" بطلت ، تقترحين تطريزه بورد الجبير . عار مثل فستان زفاف فاتن حمامة وعمر الشريف ، قد ترسمين أكماماً منفصلة بقفاز يصل لنهاية الذراع ، تاركة الصدر والظهر عاريين ولن تخجلي ، ذلك فستان يصلح للرقص أيضاً، واحد، اثنان، ثلاثة، يده أسفل ظهرك ويدك على كتفه، واحد، اثنان، ثلاثة، يفتتحون بها كل الأفراح التي شاهدتها قبل تقطيع التورتة وبإطفاء الأنوار وبتصاعد موجات من الضوء الفسفورى ، تمرين على الواجهات والأثواب ومحلات الهدايا ، قلبان متشابكان. من الفضة ، إطار يصلح لصورة الزفاف ، قلب آخر يصلح لصورة ابنتك التي تحلمين بها ، هذا الثوب ستشترينه يوم يصالحك ، وربما لو قصصت شعرك قليلاً سيصبح أجمل، خاصةً مع ارتداء سترات

أقصر لأن ساقيك ليستا سيئتين لهذه الدرجة، ليستا جميلتين وليستا قبيحتين إنهما فقط ساقاك ، ستقولين إن بيته يشبه دكاكين الوراقين ، مثل بيت الجاحظ مثلاً ، وانكما ستضعان خريطة للسير فيه على هدى صفوف الكتب التي رأيتها فوق السيفون وفي دواليب المطبخ ، ولن تنامي أبداً على سرير أسود ، تريدين سريراً ذهبيًّا بعمدان مثل سرير جدتك وستشترين له مفرشاً بلون فستان زفاف أمك "وردى" وتغلقين عليه باب الحجرة جيداً كى لا تفسدها طفلتك وستضعين تحت الوسائد أوراق الحناء، وربما ترشين له عطراً على وسادته حتى ينام مثل جدتك نينا وتتلحسين في أقدامه بلسان قطتك الصغيرة التي تحتضنينها فوق المناشف. مستعدة أنت الآن أن تركلي كل العلب الورقية التي حبسوك فيها، وتفتحي ازرارك كلها ، وأن تمزقى أوراقك بثقوب كثيرة للضوء والمحبة والحياة، وستجمعين كل صورك وإطاراتك وتتركين لها الشرفة والياسمين والمستكة وأشجار العبل التي تظلل بيتكم وبيت عمك وتقولي لها هذه المرة إنك اخترت من تحبين، وإذا لم توافق فلن تهربى منها، أنت الآن أكبر من الهرب ، سترقصين معه على أضواء الفسفور وليس مهماً أن تكون موجودة، ولا عمك ولا خالك ولا كل من عرفت من أقارب . وستنسين أن لك أماً كان اسمها الملكة ناريمان وأب اسمه سعد باشا وولد صغير جميل كان يشاركك اللعب وصنع مجلات الحوائط. صار الآن يقول لك في الهاتف "المهم أن تكوني مقتنعة" ثم يغلقه سريعاً لأنه يريد أن يهاجر إلى كندا ، النسيان ليس عملاً خارقاً ، ستسقطينهم من حسابك ليتركوك تعيشين حياتك، غالقة عليك بابك، وسوف تتذكرينهم جميعاً وأنت تقلبين في ألبوم صورك ، أو وأنت تحدثينه عن ضرورة إيجاد غرفة للبيبي لأن البيت أصغر من أحلامك ، وأن على كل منكما أن يعيش في غرفة منفصلة ، غرفتك ستغضبين فيها منه، إنك تغضبين كثيراً ، وعليك أن تجدي مكاناً داخل بيتكما لدفن غضبك بعيداً عن عينيْ طفلتك ، وربما

تختلفان على اسمها وأنتما تقتسمان أعمال البيت، وعليه أن يصبر قليلاً لأنك لا تعرفين الطبخ، ولا الحياة المرتبة، ولا يهددك بالأخريات، لأنك تتحولين إلى فأرة مذعورة وتتحسسين كل خدوش وجهك بألم، وتنسحبين بعيداً متضائلة داخل حلزون لا نهاية له داخلك.

تفتحين أكثر باب الوصل باشتهاء لكل مالم تعيشيه من فرح ودموع وانتظار وحيرة والأسلاك على فمك وسنين مرت تتحسسين حبات الرمان المفروط لتضعيها في فم غيرك لأنك عاجزة إلاّ عن التطلع بعيون محسورة من الرغبة والتعفف. هنا أنت الآن تعيشين انتظاراً طويلاً متسامحة عن كل ما خذلك فيه وهو يحدد عباراته المصوبة بدقة "لم أحلم أن أتزوج بهذه الطريقة .. يجب أن نتعارف بشكل جيد قبل أي إجراء " موافقة ستهزين رأسك وتجلسين في الشرفة، ترمي"أولجا" أعقاب السجائر وتواصلين انتظاره ، مؤكدة لنفسك أن هذا حقه ، واجدة له آلاف الأعذار، مستعدة للإيمان بأن الحب خبرة حواس، ومستعدة لأشياء كثيرة أخرى لو رن الهاتف وقال إنه بانتظارك، ناسية التي تجلس في شرفتها وقد غزا الشيب مفرق رأسها تعد في الياسمينات الميتة على أهدابها وتقول لك في المنامات "تعالى" .. وبعد أن يؤكد لك: أنكما أصدقاء حتى يثبت عكس ذلك، وأنك ضيقة الأفق جداً وتفهمين الأشياء بوعي محدود لأنك ترين الحياة من زوايا أكثر ضيقاً، أنت مجرد بنت تنتظر عريساً وإن ذلك قد يكون ممكناً لكن ليس الآن، ليس بهذا الشكل، ليس بهذه السرعة، إن ذلك يحتاج وقتاً للتفاعل، وستحاولين بدورك أن تصدقي وتؤمني بأنك ضيقة الصدر وتحاولين فتح أقواس جديدة تتحدث عن أن الحب حقيقة أساسية وأن المفاهيم التي تتحدث عن شرف الجسد [هي مفاهيم مكرسة للزيف والرياء الاجتماعي، وأن مساوئ إعلان الحقائق أقل من مساوئ كبتها وتزييفها وعلى المرأة أن تتعامل بمنطق ملكية جسدها ، ملكية عفته وبكارته في مقابل تسليع الجسد أو سقوطه وعهره حتى داخل المؤسسات

الاجتماعية وأولها الزواج بما يحمله في أشكاله التقليدية من اهـتراء قيمـي وامتهان لجسد المرأة]. وبعد أن تنتهي من صنع قناعـات جديـدة ترتدينهـا فوق خوفك وخجلك وميراثك القديم، سوف تواصلين التأهب للمسـة قادمـة تتحولين فيها إلى فراشة تواجه شوقها للضوء ، لمسة فقط من يده سوف تطلقك، حرة وناضجة ، وقادرة علـى التواصـل .. ناسـجة لغيابـه أعـذاراً كثيرة كاتبة خلف أشعارك التي حاكها الإحباط "أحوال المحبين".

.....

في هذه الغرفة التي لا تشبه بيت أبـي ، ولا بيـوت أصحـابي ، ولا بيـوت كـل مـن عرفـت ، خلعـت ملابســي ، وعلقتهـا علـى المشـجب ، ووضعت صورة أبي ، وجدتي وأنا أحبو في حجرها وصففت كتبي علـى الطاولة وحادثتك فلم ترد فالتفت حولي ثلاثة وجـوه تحدثنـي عـن البعثـات والكتـب والرسـائل ، وحيـن أعـاود الاتصـال ، أدرك كـم انـت بعيـد ، يتهموننى بـالخجل وعقد الذنب من جسدي، بأن هدوئى سيفسـد أخلاقهـن ، يتحدثن، ثم نضع فناجين القهوة تحت الماء فتنمحي رسومها ، وحين أغلق عليّ باب حجرتـي ويعرفـن أنـي لا أسـتطيع النـوم ، يتحولـن جميعـاً إلـى أمهات، وأتحول إلى نبتة هشة مسحوقة تحت وطأة فقدك.

.....

.....

لفناجين التي نقرأها تقول لي إنه يتأبط ذراعي ، ويشترى لي عقداً من الورد الصغير ويسير بجانبي على ضفة النيل وربما يقبلني إذا كان نور السلم مطفأ ، لكنك دائماً تمسك بالورقة والقلم وتصحح في أشعارى أخطاء كنت أحبها أن تظل أخطاء لأعرف أن قلبك يشاركك القراءة، هل هذا الذي بالفنجان رجل آخر وعليّ أن أتركك تصحح ، ربما تتوصل أنك أخطأت ذات يوم في حق قلبى.

.....

هذا الصباح ، رن الهاتف كثيراً ، لم أكن في انتظارك في الحقيقة ، لكني تمنيت أن تكون أنت ، وكان صوت آخر يرتعش بخوف وتردد ومحبة ، وكان صوتي متعباً.

قلت: كنت فقط أحلم.

قال : صحوت الآن ؟!

قلت : سقطت من حلمى على الأرض

.....

فراشة حامت حول وردة انتظـارى، قـالت لهـا : انعسـي، كنـت مـا أزال بجوار الهاتف ، رسمت عينـيَّ ومشـطت للمـرة الخامسـة شـعرى ، واخترعت لمن حولى ألف أكذوبة كي يتركوني أمر، إذا قلـت لـى : إننـى بانتظارك، ورن كثيراً ، وتكلم الجميع .. وكان قلبي يختلـق لـك الأعـذار، ويعرف أننى سأصدقه. وكنت أريد ذلك فـي الحقيقـة لكن فراشـة أخـرى وشت بأن الموتى قد يعودون وأن الجروح تلتئم وأن االفصول تتغير وأنك نسيتنى ، وأن علي أن أقبل ذلك وأفهمه، فدخلـت غرفتـى ، وفـي الفـراش كان حزناً شفيفاً يعبث في شعرى ويحكى لى الحواديت،

كانت على طرف الطاولة ورقة صغيرة مكتوب عليها اسـمي بخـط واضـح جداً، كـانت هنـاك أوراق أخـرى أكثر أهميـة حملهـا فـي حقيبتـه ومضى، وكان أصحابه ينتظرون دائماً ليتكلموا في مهمات أخرى، وكانت الحجرات تتغير بي ، لكننى كنـت أضعـه بجـانبي يـترقب مثلـى أن يفـرغ ويتذكر أني بانتظاره، لكنه كان مشغولاً دائماً، وكنـت إذا رفعـت سـماعته فسأحكى لأصدقـائى التـافهين كيـف يكـون الانتظـار صـعباً، وإذا جمعـت قصاصـاتى الأكثر تفاهة فلن تخلو ورقـة منـه .. ضجـر الهـاتف وتململت الأوراق، وصمت أصدقائي بإشفاق، ولم أزل وحدي التافهة التـي تواصـل بعناد محبتك.

هذا الهاتف أكرهه ، ربمـا يكـون هـو سـبب تعاسـتى الأول ، دائمـاً يلقـى لـى بأشـياء جارحـة أحيانـاً تهكـم وأحيانـاً تجـاهل ، ومـرات كثـيرة استخفاف وشماتة ، هذا الهاتف أنا أعرفه منذ زمن يمكن أن يخدعني وأن يبدل كلماتك وأن تختلط في قلبه الأشياء إلى درجة العمى أنا أعرفه تمامـاً ولا يمكن أن يخدعني ويوهمني أن الصوت الذي يبعثه هو أنت.

.....

تلك الجثة يخافون عليها كثيراً، تتحسسها أمـي كـل صبـاح، تضفـر شعورها وهي تحسبها حية.

هـل ترغبهـا ؟! خذهـا، فقـط أعـد إليهـا الـروح التـي هربـت لتعقـد المؤمرات الصغيرة، وترسم الخرائط، بحثاً عن طريق إلى قلبك.

باب الغدر

"وهو الذى لا يحتمله أحد ، ولا يغضي عليه كريم، وهو المسلاة حقاً...لا أدعى إلى السلو عند الحر النفس وذوي الحفيظة والسرى والسجايا من الغدر، فما يصبر عليه إلا دنيء المروءة خسيس الهمة ساقط الأنفة... وأني لإجفى فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة واللوم الذي لا يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسى ، تصبرت وفي القلب ما فيه".

(طوق الحمامة)

قبل النهاية تقفين في كل قصصك وتمطين خيوط الحكي كي لا تنزلقي إلى الفقد، أعرف أنه طالما دمرك هذا الإحساس بالوحدة الذي ترسمه تجاعيد أمك وهي ترثي حالها بابتسامة مقتضبة. تخافين نهاية مماثلة أم تنتظرينها؟: تحوكحينها رغماً عنك وتختارين نفس الطرقات لتواجهي فشلك مستمتعة بلذة الاحتضار بين يديّ أساك . تتذرعين كل مرة بنفس الحكاية "ليس جرماً أن تضل الطريق في غابة مظلمة ".. تلك المرة كانت أنوار الغابة مضاءة بوضوح عار، قاس، ومربك ... " أنا لم أعرفك أصلاً كي أحبك " يصوبها نحوك فتتذكرين المدرج والولد الذي كان يصف ضفائر محبوبته وهي تدخن وتشكو من الصداع وتتكور في

البنطلونات الضيقة وفي جيب قميصها تخبيء قصائد تتحدث عن "جوع إلى عري مدجج بالهلاوس" صارت البنت ظلاً لامرأة ما عرفت يوماً كيف تكونينها، كانت دائما تمر فتمصمصين في أصابعك من المهانة، وتفترش جدتك "ستي" مقعدها وتمد ساقيها البيضاوين في الماءالضحل وبالحجر الخفاف تلوح.بصدر مليئ بالعقود .."أحب ولا أتوب ياناس شوروا عليا.. أحب ولا أتوب أستاهل الشبشب ولا المركوب اللي أسيب الأصيل وامشى ورا المعيوب ياناس شوروا عليا" تضحك فتلبد أرانبك في جحورها وتضمين جروحك. متسامحة مع قسوته، واجدة له آلاف الأعذار، متذكرة الولد الذي اختار صديقتك دونك، مردداً نفس العبارة "المعرفة طريق المحبة، ونحن لم نتعارف بشكل كاف، أنا حتي لا أستطيع التكهن بتفاصيلك من خلال هذه الملابس" .. خلعت قفازك وغطاء رأسك، وفتحت قلبك عن آخره، مؤكدة أن كل تنازلات المحب مغفورة وأن الحياة تحتمل ممكنات أجمل، وأن التواصل ليس حقه فقط ، بل حقك في الحياة، وأن على علاقتكما أن تتحرر من المفاهيم الاجتماعية المجحفة، كاتبة وسط سطورك ،"المحبة شرف" متنازلة عن كل ما كنت به منتظرة اليوم الذي تدحرجت فيه إلى الحياه زرقاء ومتوجسة، ليكون يوم ولادتك على يديه، والهاتف الذي ترك لك أفواه الأسئلة مفتوحة قد يرد في محاولة قلت إنها الأخيرة بعدها ستكفّي عن اعتذارياتك وقصصك وركوب الأراجيح ، فقط تعاودين صنع نفس الحكاية لتمضين إلى التعاريج التي تسكن بها رغباتك، هنا في كفة يده التي قد يمسك بها المقود حيناً أو يتركها ليدك لتواصل اصابعك الزاحف بين تعاريجها، والكلمة المنغمة التي سبق أن تفوهت بها مازالت في فمك " هل يمكن أن تشاركني ليلة مولدي ؟" سيترك لك "بما" أو "لا اعرف الظروف" حبلاً معلقاً تتأرجحين على التواءاتة وتؤكدين أنك ستكونين مهذبة ومحبة ولن تتطفلي عليه كثيراً فقط تودين.. ماذا تودين؟! أن تضميُه بينك وبينك، وأن يقبلك في مفرق

عينيك، أن تتحسَّسي خطوط كفه ليكتشف أن بين خطي الموت والحياة ثمة نقشًا يخصه. ثوب أمك مازال في صوانك جاهزاً كما أعددته و "أولجا" ستلقي بسيجارتها لتعدل لك أطراف حاجبك، وستقرضك "ساريا" حذاءها وفي عنقك عقد اشتراه لك، وفي حقيبتك العطر و التذكرة القديمة لفيلم شاهدتاه سوياً، حدث ذلك عام وقبل يقتسمن نظرة الإشفاق التي ضمختك بتلويح الكفوف، التقطت الورد من على الطاولة والتقطت شيئاً آخر وضممته إلى صدرك وركضت ساقيك با تجاهه وانتظرت أن يفرغ من دقدقته علىالمقود لتفرغ يديه لكفك، في الظلام المطبق وأشباح على شاشة العرض تتراقص. تضمين يده في يديك، تتحسسينها بهدوء، من هنا أنت تعرفينه ، والصمت لغتكما الوحيدة، وبقلب مفعم بأسى انتظار وهجر وأشواق لامحتملة، تهلوث اصّابعك بالمحبة، تحاور يده العصية ، والظلام مطبق، والبنت التي في الشاشة تقبل حبيبها وأنت تلقمين بروده بدفء كل الرغبات التي كففتها وأنت بنفس اللهفة التي في كفه وباطن رسغه عن لهفة مماثلة، ببرود سيمسك كفك وينزله لحدود مقعدك وينبهك لبشر لم تريهم، كان كل همك الاقتراب، تاركة سيجارة "أولجا" في الشرفة تشتعل والاقواس في أوراقك تتحدث عن الكفوف والقمع الجنسي والقيم المعطلة، وتاركة أمك تلمّع في دولاب الفضية بالخل أو تصبغ الشيب الخفيف بالحنة والكركم وأوراق الشاي، تقتربين أكثر ووجهك في وجهه كما لم تفعلي أبداً وبعينين مليئتين بالتحدي والأسى تسألين: "أنا لم أفعل شيئاً ؟" تنظرين ليدك المهجورة على طرف المقعد وترددينها لصمته، تلك العبارة التي لم تجرؤى أن تقوليها لمدرس الفرنساوي الذي قال لك "لاأريد أن أسمع صوتك نهائياً" ، ستقولين لنفسك بعدها نحن نصدق ما نريد أن نصدقه من وشايات، وتؤكدين أمام صمتة أنه لايريدك ، وتحسين بالمسافة بينكما شاسعة وأنك وحدك الذي خلق وهم المحبة منذ البداية وأنك الوحيدة التي صدقته، وأن عليك الآن أن تنسحبي، مؤكدة لنفسك أن ذلك تم متأخراً

للغاية. تضمين نفس اللفافة التي خبأت فيها لعبتك ستتركينها تدور حول نفسها في متاهات روحك وتواصلين الركض في أنفاقك السرية.

لابد أن أخرج من هذا المكان وإلا فسيحدث ما ينتظرونه تماماً، سيحدث ما قاله لي وهو يصرخ في المقعد الملاصق . والناس تركت أعينها عن البنت التى تقبل حبيبها على الشاشة وحدقوا فيّ ، أنا أجمل منها بالتأكيد وأكثر حماقة ، هى تحب رجلاً تخلقه أوهامها، وأنا أحب رجلاً يجلس بجانبى لينتزع يده من يدي ويقول "أنت مجنونة..غير طبيعية بالمرة" أطفال تضحك خلفي ، ماذا أفعل؟!، لا أفعل شيئاً يكمل "أنا لا أحتمل قلقك . اتفضلي امشي في داهية".. "لا أريد أن أرى وجهك" ستشبكين أصابعك في أصابعك وتقولين "أنا أحبك وحلمت أن أعيش معك".

سيقاطعك قبل نهاية الجملة "ليس عندى وقت لك ، أنا لا أفكر في الزواج ولا في أطفال ولا في كل مافي رأسك ..أنا لست فاضياً لواحدة مثلك..اتفضلي، أنا ناقص قلق "، تقضمين شفتك بأسنانك وتمدين يدك ليده في السيارة والبنات في الشرفات يتلصصن عليك ، يدك تلثم يده تلك المرة لا ليعود إلى التعاريج التي صعدتما فيها سوياً ذات يوم ماثل هذا اليوم الذي هو يوم مولدك، وتلاقيتما هناك ، ساعتها كان كما انتظرته كل أحلامك، والوجه نفس الوجه، والكف نفس الكف، وأنت أنت . وهو يفتح باب العربة ويقول بعد أن ينتزع يده بسرعة "لا أستطيع أن أتعاطى الجنس في الشوارع" ستسحبين يدك بسرعة وتهبطين في الطرقات المظلمه لن تنامي ولن تصحى، ستجلسين عارية على البلاط البارد وتطلبين من المارة أمام حجرتك أن يطفئوا، أنوار الطرقة، وتعضين على أوجاعك بانكسار "أنا لم أعرفك أصلاً كي أحبك" وفى الظلام تأتى أمك لتسحبك من شعرك ومعك نفس الحقيبة التى بها الأشياء التى تعرفينها ،

صورة أبيك ، صورة جدتك وأنت في حجرها، عقد بلون الغيم ، تذكرتان للسينما، حرفين متشابكين على هيئة "أحبك"، عروسة فوق المكتب وأرنبة وبيجامة بها ورد، وورقة علقتها فوق فراشك، خططت بالألوان الفسفورية كلماتها " يا الذى انت شمسى فى كل حين لماذا لا تشرق عليّ قط" ، ستسحبك أمك من ذراعك ، وتفتح نوافذ غرفتها وتضع النرجسة فى آنية الزهر ، وترش على الوسادة قليلاً من العطر ، وفي المغطس ستترك الماء الدافئ ينزلق من على خصلات شعرك ويمضى فاحراً فى تجويف جسدك ، لن تقوى على الوقوف ، ستضمين رأسك بين ساقيك والماء الذى يبحث عن طريقه لن يدخلك ، سيملأ المغطس ويفيض ، ورأسك بين ساقيك ، وصوت انتحابك يسيل وهى هناك تنتظرك بالمنشفة وبيجامة بها ورد صغير وكرانيش حول الجيوب ، ستعيد تضفير شعرك لتنامى الليلة فى أحضانها، ابنة مهذبة رقيقة لن تفتح فمها لأنها حين تضحك تظهر خبطة قديمة فى فكها العلوى ، وستنظف أنفها جيداً لأن الكلمات أحياناً تخرج من أنفها فيبدو صوتها غير مريح ، ولن تنطق السين ولا الصاد ولا التاء ولا الذال ولا الشين لأن بين سنتيها الأماميتين فراغ تلحظه أمها، وتلحظ أيضاً أن تلك الحروف لا تجد مخارجها الصحيحة ولن تنسى أن تكون نظراتها دائماً محددة لأن حدقتها تتخذ بعضالجوانب كأنها حولاء ، والأفضل أن تركز النظر فى حذائها لتتأكد أن ساقيها مضمومتان، وإذا اقتضت الضرورة أن ترفعها فلن تطيل ذلك . وهى تعرف أن بجانب فراشها قطناً لتنظف اذنيها، ولن تنسى ذلك وهى تنظف أسنانها خمس مرات فى اليوم لكن لن تقنع بأن تلك الرائحة ليست من أسنانها بل هى من حلقها المصاب بالاحتقانات .

هاهى تنام طويلاً وتحاول أن تصادف بدايات جديدة، وربما يأتى ويوقظها ويضمها كما كانت تحلم للأبد .

باب البين

"وقد علمنا أنه لا بـد لكل مجتمـع مـن افتراق ولكـل دان مـن تَنـاء ...وهو الخطـب الموجـع والهـم المفظـع والحـادث الأشنـع والـداء الـداويّ وأكثر مايكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب". (طوق الحمامة)

في البيت الذي اسكنه حجرتيـن بينهـا حـائط، ولهمـا شـرفة واحـدة، تسكن بها امرأة كنت اعرفها، حين نلتقي في الممر نبتسم، وحيـن تقـابلني خارجة من الحمام، ورذاذ الماء يتناثرمن شـعري تهـز رأسـها بـا عتبارنـا اصدقاء، واذا خفت الضوء قليل واصطدمت قامتنا ونحن نتلقي في الشرفة، سنترك الاشياء المهمة التي كنا نتحدث فيها ونحسـب الفـرق بيـن عمرينـا ومشاكل الحواجب والشعر الزائد الذي ينمـو أكثر صيفـاً وربمـا تقول أن لديها مشكلة وحيدة، ستحل.. إنها لم تنجب حتى الآن وأن ذلك مقلق، لكـن حينما تعود، لابد أن تجد حلاً، سـتريني صـوراً فـي حافظتهـا ولـن تجيـب حين أسألها، هذا الذي تقول عليه زوجها هـل تحبـه؟! تهـز رأسـها وتقـول إنها لم تفكر، ...هناك فقط مشكلة واحدة، أنها حتى الآن لم تنجب، ستبتسم بأسف أكثر حين أقول لها أيضـاً إنني أحـب رجـلاً ربمـا لا يحبنـي، سـأمصمص شفتي مثلهـا وأقـول ... مشكلة لابد أن تحـل، ونغلـق بـاب

الشرفة متأكدتين أن هناك خيبات كثيرة وأن السعادة ربما لاتجيء، نرتدي نظارات القراءة ونعاود الحديث في أشياء ندعي أنها مهمة لتزداد عيوننا لمعاناً كلما عبرنا جسراً من الطموحات.

في البيت الذي أسكنة، صارت هناك غرفة فارغة تجاور غرفتي. كان بها امرأة صغيرة تحلم أن تنجب، ترتدي نظارة سميكة ليقولوا عليها مستعربة، كانت تقول لي في الظلام إنها تفهمني تماماً ، مضت اليوم، حملت حقائبها دون أن تقول لي وداعاً.. رحلت لبلادها البعيدة، تركت بجواري غرفة فارغة.

.....

صديقتي التي أقتسمت معها دموعي تصحو في الليل لتكتب قصيدة جديدة، تكتب صيغة نعيها، وتعد أسماء الذين تفترض بكاءهم، كانت تحلم برجل مهيب يوزع الحلوى على أفواهنا، ولا يطلب منها شيئاء، فقط أن تبتسم، وربما يخطفها إذا رأى، كم هي جميلة، كم هي حزينة؟! لابد أن يكون مناضلاً مثلاً، يجلس الآن على فراشه كسيحا، يجتر معها أمجاداً طالما عاشها، وبين كل جملة وأخرى، ينظر لصورته في الإطار، ليتأكد من أنه هو الفتى المقصود.. فقد كان يافعاً وجميلاً يصلح لأحلامنا الليلية. صديقتي التي كانت تكتب القصائد، خاصمتها البارحة، بعدما أكتشفت أن وسادتي التي تمتص دموعي قد لاتجد حرجاً إذا أفشت بعض أسرار جروحي. كل الوسائد تعرف الخيانة، لكنها كانت إذا بكيت، إدعت النوم كي لا أرى في مقلتها صورتي البائسة، وفي الصباح، تعد كمادتين لعيني

وتقول إنه الإرهاق، سافرت بالأمس، ذهبت تبحث في تراب بيت قديم عن كنز خبأه أبوها، وملاعق من ذهب دستها أمها في التراب لأنها أكتشفت أن القصائد والفارس الكسيح، وعينيها المليئتين بالدموع لن يخلقوا لها فرحة واحدة أو كلمة في قائمة الرثاء.

كانت بيننا واقترب مسافة، وردة، أوراق قديمة في جيب سترته، واقتربت، نسيت أن أقول له إن تلك السنوات التى يسأل عنها كانت في إنتظاره، وأن هذا الثوب الذي ألبسه اشتريته ليعجبه، وأنى لا أطيق تلك الأوراق التى يكتبها لأناس غيري، وأني أحبه، فمضى... ، وبقت لي مسافة ، يقف فيها الخوف، وتقف فيها تلك الجروح التي يعرفها، ويقف فيها الآخرون.

قابل صديقتي البارحة ، قال لها إنه لا يعرفني. أخفت عليّ ذلك ، وتركتني أحكي لها الحكايات عنه. حدثتني فقط عن أن كل الأشياء تطحنها الطواحين. حتى الأحجار ، لكنني حين جلست بانتظاره نصحتني بالنوم. قالت، إن عليَّ أن أنسى. قال أيضاً لأصدقائه إننى تافهة، وأنه لا يريد أن يعرفني، قرأت في وجوههم ذلك فانصرفت ببؤس. هبت نسمة

من النافذة ، كانت باردة ، لكنني فتحت لهـا صـدري فحدثتنـي أنها مـرت عليه ، وأنه حقاً لم يعرفني أبداً وأن عينيه ليستا جميلتين كما أعتقد.

إنه لا يستطيع أن يرى إلا هواجسه وأكاذيب الآخرين

وأنه سوف يظل يصدق ما يريد أن يصدقه.

قالت لي ذلك كله فكرهتها

وانتظرت نسمة أخرى قد تقول لي "إنه يحبك" .

.....

أنا الآن هادئة تماماً ، مثلما أكون بعد كل نوبات حزني ، أتمدد على الأرض وأجتر آثامي

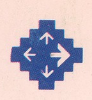
يدي التي تحن إلى دفئك ، فمي المعذب بالرغبات ، وجسدي الذي أنهكه الانتظار.

أخبئ وجهي بعيداً عن مرآتي ، لكن حين تواجهني ستقول عني بسخرية ، افتحي زراً إضافياً من أزرار رخصك، وتحدثني عن النسيان ، وعن فضائل ارتداء القفاز وصنع المسافات وبراقع الخجل، وبعد أن تسرد أحكام الصد والهجر واللوعة وتؤكد خيباتي ستأتي أمي بعد أن تفرغ من صلاتها وتضع رأسي على حجرها وتعدد الرقى وتحدثني عن عيون الناس.

وحين تمر أنت ناسياً أن هذا الذي بقلبي هو جرحك سيأتيني الأرق

ويشـاركني فراشـي ويحدثنـي عـن الكبريـاء وسـوف أتظـاهر بـالتصديق وأغافله بالليل وأحتضنك وقد أبكى على صدرك.

المحتويات



صدر حديثاً في هذه السلسلة

ذكريات الطفولة / مارسيل بانيول:

مجد أبي

قصر أمي

زمن الأسرار

زمن الحب

الألف / خورخي لويس بورخيس

امرأة وعشق بسيط / آني إرنو

فتاة عادية / آرثر ميللر

الإنسان العابر والأدب / أندريه مالرو

زنابق الضوء / ليانه بدر

عصافير خضراء قرب بحيرة صافية / ع

ميجابوليس / خالد السنديوني

الرجل العاري / عادل عصمت

مشوار لحد الحيطه / عمر طاه

جنون النخيل / عبد الله خليف

قمع السكر / نبيل خلف

بائعة الحزن / إيهاب عبد الحم

أزهار الشمس / يوسف رخا